ترشيد الصحوة الإسلامية

ومعها ثلاث محاضرات أخرى:

١ ـ منهج أفضل في الإصلاح للدعاة والعلماء .

٢ ـ الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر؛ جبهاتها الحاسمة، ومجالاتها الرئيسية .

٣ ـ النبي الخاتم والدين الخاتم، ومالهما من أهمية في تاريخ الأديان والملل .

ألقاها
سماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة
للناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
لصاحبها
عبد القادر محمود البكار

١٢٠ شارع الأزهر ت ٩٣٣٨٢٠ - ٢٦٣١٥٧٨
ص.ب ١٦١ الغورية فاكس ٢٦٢١٧٥٠

الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

المحاضرة الأولى :

ترشيد الصحوة الإسلامية

* لفت نظر واسترعاء انتباه قادة الصحوة الإسلامية والمعنيين بها إلى جوانب هامة وثغرات حاسمة .

* في سبيل تدعيم الصحوة الإسلامية وتعميق أثرها وتوسيع دائرتها.

ألقاها
سماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة بين يدى الكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم .

وبعد ، فقد ألقى سماحة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي في قاعة المحاضرات بالمجمع الثقافي الكبير في أبو ظبي (دولة الإمارات) مساء يوم الثلاثاء محاضرة عنوانها : « ترشيد الصحوة الإسلامية » في ٢٠ / من ربيع الآخر سنة ١٤٠٩ هـ (٢٩ / من نوفمبر سنة ١٩٨٨ م) ، وغصت الساحة الواسعة بالمستمعين ، وحضر المحاضرة عدد من كبار المسئولين وجمهور غفير من المهتمين بالثقافة والقضايا الإسلامية .

وكان اختيار الموضوع وتعيينه من المحاضر نفسه ، وكان متجاوبًا لأوانه ومن وحي الساعة وحاجة العصر ، فقد كثر الحديث عن الصحوات الإسلامية في بلاد مختلفة وكثر التفاؤل بها والاعتماد عليها ، وكانت ولا تزال في حاجة إلى توجيهات عميقة مخلصة ، واستعراض أمين دقيق ، في ضوء دراسة واسعة هادفة للتاريخ ، وتجارب الدعوات والصحوات ، والحركات

والانتفاضات ، قديمًا وحديثًا ، ومعرفة واقع الحياة والمحيط ، والاتجاهات والحركات ذات الخطر والأثر في الحاضر والمستقبل ، التي تعاصر هذه الصحوة ، بقوة ونشاط ، وأهداف عميقة بعيدة ، وما تعيشه هذه الأمة من محن وأزمات ، ومؤامرات ومخططات دقيقة رهيبة ، ولا يسوغ التغافل عنها والاستهانة بشأنها وخطرها .

وقد عاصر المحاضر الفاضل صحوات كثيرة يمضي عليها نحو نصف قرن ، وعرف كثيرًا منها عن كثب لا عن كتب ، وكان له اتصال بقادة بعضها وتقدير واعتراف بمجهودهم ونتائجه ، وترحيب وتشجيع لبعضها ، وتوجيهات ولفتات أخوية إلى ما يكمل النقص ويزيد في القوة والتأثير وإلى ما يستحق العناية الزائدة ، والاهتمام الأكثر من القادة والموجهين والمسئولين والعاملين ، فتلقى ذلك ـ في أكثر الأحيان ـ بالشكر والتقدير .

ولعل هذه المحاضرة المرتجلة ـ التي تناولها المحاضر بعد نقلها من الشريط المسجل بزيادة وتفصيل ، وإضافة بعض النقط الهامة ـ تمثل هذه الملاحظات والتوجيهات التي سبقت في أزمنة ومناسبات مختلفة ، خير تمثيل ، وتساعد القائمين على

هذه الصحوات المباركة ـ التي هي مسئولية كبيرة وأمانة دقيقة جليلة ـ في ترشيد هذه الصحوات والزيادة في قيمتها وتأثيرها ، والتمكن من صيانتها من الاستهداف للمشاكل التي هي في غنى عنها ، وفي تحقيق أكثر ما يمكن تحقيقه في غاياتها وأهدافها ونقل أمتنا ـ وعلى الأقل جزء العالم الإسلامي الواسع الذي تقوم فيه هذه الصحوة ـ إلى واقع أقرب إلى الحياة الإسلامية المثلى ، ومكانة الأمة اللائقة بها ورسالتها ومنصبها .

ولذلك عنيت « دار عرفات »[١] بنشرها في رسالة مفردة تعميمًا لفائدتها ، وعلى الله قصد السبيل .

محمد الرابع الحسني الندوي
عميد كلية اللغة العربية وآدابها
بجامعة ندوة العلماء
وأمين المجمع الإسلامي العلمي العام في لكهنؤ

١٤ / من جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ
٢٤ / من ديسمبر ١٩٨٨ م

---

(١) هذا خاص بالطبعة الأولى بالهند .

بسم الله الرحمن الرحيم

ترشيد الصحوة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين ، محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

سادتي وإخواني ! يسرني ويشرفني أن أتحدث عن هذا الموضوع الجليل الذي أصبح حديث النوادي والمحافل ، وشغل الناس الشاغل ، والموضوع دقيق كبير الحساسية ، وقد نشأ في طبائع كثير من الناس شبه حماية أو شبه تقديس للصحوة الإسلامية ، وكثر تفاؤلهم بها حين يسمعون بها في أي بلد ، ولكني أتجاسر وأتناول هذا الموضوع بشيء من الصراحة والنقد الإيجابي البناء .

الصحوة الإسلامية مسئولية كبيرة وأمانة دقيقة :

هذا لأن الصحوة الإسلامية في الحقيقة مسئولية كبيرة وأمانة دقيقة جليلة ، فإنها إذا وجدت فهي كالسهم إذا طاش وأخطأ الهدف ، فإنه لا ينسب هذا الخطأ إلى القوس ، ولا

يحمل على مصادفة أو فلتة ، بل إلى الرامي ، فإخفاق السهم في إصابته الهدف ، إنما يأتي من ضعف الساعد وعدم قدرة الرامي ، وكذلك الصحوة إذا اتخذت منهجًا غير دقيق وغير مخطط تخطيطًا دقيقًا جامعًا ، أفقدت الثقة أو أضعفها بصلاحية الإسلام في إنشاء الصحوة الصالحة القوية ، ومحاربة الأوضاع الفاسدة ، وإيجاد قيادة صالحة قوية واعية في إنشاء مجتمع صالح إسلامي مثالي . وربما قطع الأمل في محاولة جديدة للصحوة الإسلامية في المستقبل ونجاحها وتحقيقها للأهداف والآمال ، ويعكس سلبًا على الإسلام والمسلمين ، ونتيجة عدم التخطيط السليم مسبقًا .

إن كثيرًا من الناس لهم تعبير أو تفسير خاص للصحوة ، إنهم ينظرون إليها كحرب أو رد فعل ضد البيئات الفاسدة والأوضاع المنحرفة فحسب ، أو ضد قيادة أو حكم لا يتفق مع تعاليم الإسلام وأسس حكمه إطلاقًا ، أو يحبذون بها ويصفقون لها إذا كانت مجرد هتاف ضد قوة أجنبية كبيرة ، أو تحديًا لها ، ولو بمجرد مناورة ومظاهرات وإعلانات .

الصحوة من طبيعة الإسلام وواجباته ، وحاجة البشرية الدائمة :

والصحوة في الحقيقة من طبيعة الإسلام يجب أن تمتد وتتسلسل وتتصل اتصالاً مستمرًا ، لأن هذه الأمة ، هي الأمة المختارة والأمة الأخيرة المبعوثة للإنسانية جمعاء وهو تعبير نبوي عن هذه الأمة ، وقد أثر عن الرسول ﷺ أنه قال لبعض كبار الصحابة : « إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين »[١] ، وقال سيدنا رِبْعِيٌ بن عامر لرستم لما قال له: « ما الذي جاء بكم ؟ قال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام »[٢] ولا أبلغ ولا أوضح من قول الله تعالى :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[٣] .

---

(١) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١١٠ .

فكانت بعثة رسول الله ﷺ مقرونة ببعثة أمة ، بعثة مجموعة بشرية داعية واعية ، كتبت لها الوصاية على المجتمع البشري في كل زمان ومكان ، والحسبة الخلقية والعقائدية والقيادية على الجيل الإنساني في كل عصر ، فالصحوة الإسلامية حاجة البشرية الدائمة الخالدة ، لا تقل في الأهمية عن الحاجة البشرية إلى مقومات الحياة كالغذاء والماء والهواء معنويًا ، وهي في صالحها ومن مطالبها ، وعدم وجودها ليس خطرًا على الكيان الإسلامي والمجموعة الإسلامية فقط ، بل هو خطر على سلامة المجتمع البشري واتجاهه السليم ، وبدونها تبقى الشعوب والأمم كقطعان غنم من غير راعٍ ، وسفينة مشحونة بالركاب من غير مجدف خبير قدير .

وهذا العصر يحتاج إلى الصحوة الإسلامية أكثر من أي زمان ، لأن هذا العصر هو عصر الشهوات والشبهات ، وعصر الفلسفات ، وعصر الأساليب الفكرية الأجنبية عن الإسلام ، فنحن نرحب بالصحوة الإسلامية في كل بلد ، وندعو لها بالتوفيق ، ولكن هذا لا يمنعنا من تناول هذه الصحوة بشيء من النقد الهادف ، ومن وزن هذه الصحوة على ميزان العقيدة الإسلامية وعلى ميزان المقاييس والمعايير الصالحة ، وعندي أيها

الإخوة ملاحظات ربما تنفع المساهمين في هذه الصحوة والداعين إليها والعاملين لها .

أول شرط لسلامة هذه الصحوة أن تكون موافقة للعقيدة الإسلامية الصحيحة :

إن أول شرط لسلامة هذه الصحوة وجدارتها بالثقة والاحترام والدفاع ، هي أن تكون الصحوة موافقة للعقيدة الإسلامية المنبثقة من الكتاب والسنة ، بحيث تتفق وعمل الرسول عليه السلام وأسوته وأسوة الخلفاء الراشدين من بعده ، وفهم الراسخين في العلم وعقيدة الجمهور من المسلمين ، ولا تنساق في التيارات السياسية والاتجاهات المرتجلة ، أو تكون مجرد رد فعل في مواجهة أوضاع محلية ، أو مجرد وعود لإقامة حكومة إسلامية ، أو سيادة سياسية ، وعرض لإمكانياتها ، فيرحب الناس بها ويتحمس الشباب في الدفاع عنها ، بصرف النظر عن عقيدة قادة هذه الحركة وانحرافاتهم عن العقائد الإسلامية المجمع عليها ، بل محاربة لها أو ثورة عليها في بعض الأحيان .

ذلك لأن العقيدة هي في الحقيقة هو النهر الجاري المتجه

إلى الجهة الكريمة السليمة الدائمة ، لم ينقطع ماؤه ولا جريانه على الخط السليم ، أما الموجات التي ترتفع وترسب ، والمجاري التي تأتي وتذهب ، فلا ثقة بها ولا عمدة ، فقد يكون ذلك في الصباح ويذهب في المساء ، والذي درس التاريخ الإسلامي دراسة عميقة محايدة ، يعرف أنه كانت هناك تيارات على مد التاريخ الإسلامي كانت فيها جاذبية وسحر ، وكانت لها جولة وصولة ، وكانت رمزًا للتنور ، ورمزًا « للعقلانية » ، ورمزًا للتفكير الحر ، وكان كثير من الشباب يتجدد ويتنبل باحتضانها والدفاع عنها كـ « موضة » عصرية ، وشعار للتنور والوعي ، ثم ذهب ذلك أدراج الرياح وطوي في صفحات التاريخ ، لا ينتبه لها ولا يعرفها إلا المتتبع لتاريخ علم الكلام والعقائد والحركات الفكرية .

لابد من التوسع في الدراسة الدينية ، وتغذية الشباب المثقف بالغذاء الفكري الصالح القوي الدسم :

والمعيار الثاني أن تتصف هذه الصحوة بشيء من التوسع والتعمق في الدراسة الدينية ، وفي فهم الكتاب والسنة .

ويُعنى بالشباب المثقف (الذين يزداد عددهم في هذه

الصحوات) عناية خاصة ، فيغذوا بالغذاء الفكري الصالح القوي الدسم الذي ينور عقولهم ، ويعيد فيهم الثقة بصلاحية الإسلام للقيادة وحل مشاكل الحياة ، ويجب أن يحثوا على الارتباط القوي العميق الإيماني والعملي بالقرآن الكريم ودراسة السيرة النبوية وتاريخ الإسلام الأول وتاريخ الإصلاح والتجديد وقادتها ، الذي يشعل مواهبهم ، وينير لهم السبل لتوجيه طاقاتهم توجيهًا قياديًا سليمًا ، والاعتماد على نجاحه وإثماره إذا كان عن صدق وإخلاص وإنابة إلى الله .

ويُعنى كذلك بسلوكهم الفردي والاجتماعي والعائلي وأخلاقهم الفردية والجماعية ، فإن ذلك من صفات الدعاة إلى الله والعاملين في مجال الدعوة والإصلاح الاجتماعي ، وقد وقع في ذلك انحطاط ملحوظ في المجتمع الإسلامي بصفة عامة ، وكان للعاملين في مجال الدعوة نصيب قليل أو كثير منه ، كان له رد فعل وانعكاسات سلبية في المحيط ودليل للناقدين المعارضين .

يقترن بالصحوة الوعي المدني وفهم القضايا المعاصرة والحركات والتيارات العاملة النشيطة :

ويرافق الصحوة ويقترن بها الوعي المدني وفهم القضايا المعاصرة والحركات والتيارات العاملة النشيطة ، وموقفها من الإسلام ، وأثرها في الحياة ، وخطرها على مستقبل هذا الدين والجيل الإسلامي ، والاطلاع على أهداف القيادات التي تريد أن تسيطر على هذه البلاد والبيئات ، وتتسلم زمام توجيه المجتمع وفق عقائدها وقيمها ومثلها ، وسبك الحياة سبكًا جديدًا ، فإن التغاضي عن هذه القوات والطاقات ، والحركات والقيادات ، وانطواء الجماعات الإسلامية على نفسها ، معتمدة على تمسكها بالدين والدعوة إليه ، والاشتغال بأداء الفرائض والواجبات الدينية ، وحياة الطهر والعفاف والعبادات والطاعات ، يحول بعد مدة من الزمن بينها وبين حرية العمل بالدين ، وتطبيق أحكام الشريعة ، ويضيق الخناق حولها ، حتى ينطبق عليهم قول الله تعالى :

﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ﴾[1] .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١١٨ .

ويعيشون في المستقبل تحت رحمة هؤلاء المارقين من الدين أو المحاربين له ، والتقنين غير الإسلامي ، والتدخل في الشريعة الإسلامية ، وقانون الأحوال الشخصية الخاص بالمسلمين ، وتحت مبدأ المجتمع الغربي المسيحي الذي يقول : « إن الدين قضية شخصية وقضية بين الفرد والخالق ، لا شأن له بالحياة والتشريع والسياسة » .

نتائج التغاضي عن الحقائق وواقع الحياة ، والانطواء على النفس والذوق الخاص :

ومعذرة إلى لفيف من الإخوان الذين يرون أن لا داعي إلى الوعي ، ولا داعي إلى التطبيق بين الصحوة الإسلامية وبين واقع الحياة وقضاياها الشاغلة للعقول والمؤثرة في تشكيل المجتمع ونظام التربية ومنهج التفكير ، وقد نشأ في بعض البلاد الإسلامية رجال متحمسون قد أهملوا هذا الجانب ، وقالوا لا داعي إلى العناية بالقضايا المحيطة بنا ، الشاغلة للعقول والنفوس ، وإلى النظر إلى المجتمع ، هل يتجه إلى الفساد ، ويتجه إلى الانحراف والتحرر والتفسخ ، أو يتجه إلى الصلاح والرشاد ؟ ، ما دمنا نحن نصلي ونصوم ، فالحمد لله على ما أنعم به علينا من نعمة الإسلام والعمل بأحكامه ، فليس هذا بالفهم

الصحيح للإسلام ، فلابد من تنمية الوعي الصحيح وتربيته ، والفهم للحقائق والقضايا ، والتمييز بين الصديق والعدو ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر ، حتى لا تتكرر مآسي وقوع هذه الشعوب فريسة للهتافات الجاهلية والنعرات القومية ، أو العصبيات اللغوية والسلالية والإقليمية ، ولعبة القيادات الداهية والمؤامرات الأجنبية ، فتذهب ضحية سذاجتها وضعفها في الوعي الديني والعقل الإيماني ، وتذهب جهود تكوين الجو الإسلامي ومحاولات تطبيق الشريعة والنظام الإسلامي سدى ، أو تتعرض لخطر تطبيق النظام العلماني والتحرر و « التقدمية » الغربية ، المقبولة في العصر الحاضر والمطلوبة من الجماهير التي لم تتلق تربية إسلامية ، ونشأت في ظلال نظام التربية الغربي ، الذي طبقه الحكم الأجنبي الطويل (الذي يسمى « الاستعمار ») وتحت تأثير وسائل الإبلاغ المسلية الماجنة[١] .

---

(١) وقد ظهرت هذه الحقيقة جلية في نتائج الانتخابات والتصويت الحالية (في شهر نوفمبر ١٩٨٨ م) في باكستان ، البلد الذي قام على اسم الإسلام وتطبيق نظامه ، وإثبات نجاح هذه التجربة للعالم ، فكانت النتائج بالعكس دليلاً على انتصار التقدميين وهواة التحرر من قيود الشريعة والنظام الإسلامي ، على المنادين بالنظام الإسلامي ونفاذه ، والمتقيدين بالتعاليم الإسلامية ، حتى أفضى=

المجتمع الإسلامي الأول وعلى ما ربي واختص به ؟

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين هكذا ، فقد كانوا لا يَخْدَعُون ولا يُخْدَعون ، فأما أنهم لم يكونوا يخدعون فهو معلوم بالبداهة ـ وحاشاهم عن ذلك ـ ولكن كثيرًا منا لا يعرف أنهم كانوا لا يُخْدعون ، فقد كانوا واعين متيقظين لم تكن عقولهم ونفوسهم تسيغ شيئًا لا يتفق مع روح الدين وتعاليمه ، ولا يقعون فريسة للمغالطات والمظاهرات الخلابة والهتافات المغرية .

وأكبر دليل على ذلك والمثل الأعلى أن الرسول ﷺ - الذي كانوا يؤمنون بأنه النبي « المعصوم » ﴿ **وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى** ﴾[1] ، والذي كان أحب إليهم من أنفسهم وآبائهم وأبنائهم ، وما عرف التاريخ جيلاً بشريًا أكثر احترامًا وإجلالاً لداعٍ أو نبي منهم مع مراعاة الحدود والتجنب عن التأليه والتقديس اللائق بالإله الواحد القهار -

= ذلك إلى تولية امرأة متحررة على كبرى المملكات الإسلامية لأول مرة في تاريخ الإسلام الطويل ، ذلك مع وجود آلاف من العلماء ، ومئات من المدارس الدينية ، وعدد كبير من الجماعات الإسلامية الدعوية في باكستان .

(١) سورة النجم الآية : ٣ .

قال مرة : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » وكان ذلك من أمثال الجاهلية السائرة (كما قال كبار الشارحين للحديث) وكان ذلك من الأعراف الجاهلية السائدة ، فيقول الشاعر الحماسي مادحًا لبني مأزن :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانًا

رغمًا عن كل ذلك لم يملك الصحابة الحاضرون أنفسهم ، فقال أحدهم :

« يارسول الله هذا نصرته مظلومًا ، فكيف أنصره ظالمًا ؟ » ، ولم يبدِ رسول الله ﷺ على ذلك استياءً أو استنكارًا ، بل قال في هدوء ورضا : « تمنعه من الظلم ، فذاك نصرك إياه »[١] .

وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن - وبالطبع المجتمع الإسلامي السليم - بما يدل على وعيه وتفرسه ، فقال : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين »[٢] وقال : « اتقوا فراسة المؤمن

(١) حديث متفق عليه .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده .

فـإنـه ينظر بنـور الله »[١] وهكـذا يجب أن يكـون المجتمـع الإسـلامي في كل زمـان ومكان ، لا يخـدع ولا يخـدع ، ولا يلدغ من جحر مرة بعد مرة .

العنـايـة ببقـاء الشعور بـأهميـة الجهـاد في سبيـل الله وفضله :

كذلك تجب العناية ببقاء الشعور بأهميـة الجهـاد في المفهوم القرآني الشرعي الإسلامي وإحـلالـه المحـل الـلائـق من العقـل والعاطفة ، ومن الإكبـار والإجلال ، والغبطـة على من اتصف به ومثل بـه دورًا بـارزًا ، والحرص على تقليـدهم ، والحنين إلى الشهادة ، فإنها ثروة إيمانية ، تمتاز بها هذه الأمة من بين الأمم قديمًا وحديثًا ومصدر خوارق ، وروائع من البطولة والفـداء ، واقترن به نصر الله وتأييده في كل زمـان ومكان ، وتخلي الأمـة عن هذه الطاقـة أو الثروة خسـارة لا تعوض بشيء ، وفراغ لا يملـؤه شيء آخر من التـوسـع في العلم والتقـــدم في العقـل والحضارة .

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري .

ويستعان في ذلك بكتب[١] تثير في العاملين الدعاة والمستمعين الحماس الديني ، وتشعل فيهم الحمية الدينية ، وترخص الحياة ومتعها وأمجادها في سبيل إعلاء كلمة الله .

كيف تقع حركات إصلاحية جذرية فريسة الجمود الذي تنشأ لإزالته ، وتفقد الحيوية والحركية ؟:

ومن عبر التاريخ المتكررة ودروسه التي يجب أن ينتفع بها ، أن حركات إصلاحية جذرية قامت لإزالة الجمود الطارئ على العقول والتفكير والحياة ، وإزالة الطحلب[٢] عن سطح ماء النهر الإسلامي الجاري ، والقضاء على التقيد ببعض التقاليد العرفية ، ومقاييسها ومطالبها التي ما أنزل الله بها من سلطان ، قامت لتحريك العقول والطاقات في المجتمع الإسلامي لفهم قضايا العصر وتحقيق متطلباته الصحيحة المقبولة ، ومسايرة العصر ، بل قيادته قيادة صالحة رشيدة ،

---

(١) وذلك مثل تاريخ الغزوات النبوية ، وأبواب الجهاد في كتب الحديث ، وتاريخ السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وتاريخ الجهاد والبطولات في العهد القريب ، كحركة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) في كتاب « إذا هبت ريح الإيمان » للمحاضر .

(٢) الطحلب خضرة تعلو الماء المزمن .

والبرهنة على صلاحية الإسلام لقيادة كل عصر وحل مشكلاته وقدرته على إجابة كل سؤال ، ومواجهة كل تحد .

من عِبَرِ التاريخ أن كثيرًا من هذه الحركات الإصلاحية الجذرية ـ ولا أقول الثورية ـ وقعت على مر الزمن فريسة الجمود والركود اللذين نشأت لمحاربتهما ، وأصبحت أسيرة منهجها الأول الذي كان مطابقًا لوضع العصر الذي نشأت فيه ، محققًا لمتطلبات حركة إصلاحية في إطار خاص محدود ، وتمسكت بالخطوط والحدود التي رسمها قادة هذه الحركة في الماضي عن إخلاص ووعي ، إجابة لنداء العصر ، وتطبيقًا لما أنبأ به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، بقوله : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين »[1] وتمسكت بهذه الخطوط والحدود ، تمسك الناس بالمنصوص القطعي الذي لا يقبل حذفًا ولا زيادة ، ولا مرونة ولا توسعًا ، وسيطر على العاملين في مجال هذه الدعوة والحركة الركود الفكري والتطرف في بعض الأحيان ، وألحوا على منهجهم كنصوص الشريعة القطعية ، والآيات القرآنية .

(١) مشكاة المصابيح (الفصل الثاني) .

السبب في ذلك :

وقد كان ذلك لأن هذه الحركة قد فقدت عنصر النمو والقدرة على استعراض المحيط ، وطبيعة العصر وقضاياه الطريفة المتجددة ، والقدرة على التطبيق بين المنهج الإصلاحي وواقع الحياة ومتطلباته ، ومن الحقائق أن الإسلام استطاع أن يساير كل زمن ويثبت جدارته لقيادة المجتمع البشري والتطبيق بين تعاليمه وحاجات العصر ، لوجود العلماء والقادة الذين لم يفقدوا ـ قط ـ النمو الفكري ، والذكاء الممتاز والقدرة على الاجتهاد واستنباط الأحكام من الأصول الدينية ومصادر الشريعة الأولى في كل زمان ، ومواجهة كل تحد في عصرهم ومصرهم ، وتحقيق كل ما يطلبه الزمان وتحتاج إليه الأمة ، بقدرة فائقة ، وعبقرية باهرة ، ولم يغمضوا عيونهم عن واقع الحياة ، ولم يصموا آذانهم على نداء العصر وطلبه ، فبقي هذا الدين حيًا خالدًا ، مقبولاً سائغًا ، قادرًا على قيادة المجتمع وترشيده وتسييره في دائرة الإسلام على الخط السليم ، والصراط المستقيم[1] .

---

(١) نيرجع للتفصيل إلى مقدمة كتاب « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » الجزء الأول للمحاضر ، المعنونة : « الحاجة إلى الإصلاح والتجديد والبعث الجديد =

ضرورة كون الصحوة إيجابية ، والتوقي من المجابهة وإثارة المشاكل والمعارضات من غير ضرورة :

والمعيار والشرط الثالث ، أن لا تكون هذه الحركة سلبية محضة تسرع إلى مجابهة الحكومات والطاقات ذات القوى والوسائل ، وتحدث لها مشكلات وعراقيل في الخطوة الأولى ، فتضيع بذلك كثيرًا من طاقاتها وأوقاتها ، وتنشئ لها أعداء ، وقد تجاهد في غير جهاد وفي غير عدو ، بل يجب أن تكون إيجابية أكثر منها سلبية ، وتفضل العمل بمبدأ إيصال الإيمان إلى أصحاب الكراسي وحملهم راية الإسلام وتطبيق النظام الإسلامي بأنفسهم ، على مبدأ إيصال أصحاب الإيمان وأعضاء حركة إصلاحية خاصة إلى الكراسي ، واحتكار عمل تطبيق النظام الإسلامي وقلب أوضاع المجتمع ، لأفراد جماعة خاصة ودعاة مخصوصين .

= واتصالها في تاريخ الإسلام » (ص / ١١ - ٢٦) .

مثال رائع من تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام :

ولم أجد في دراستي لتاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام ، مجهودًا تحقق له من النجاح ، ومصلحًا تمكن من قلب الأوضاع ، وتغيير مجرى التاريخ وإرغامه على أن ينحو نحوًا جديدًا ، مثل ما تحقق للإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي[1] (م ١٠٣٤ هـ) وهنا مقتطف من كتاب صاحب المحاضرة « ربانية لارهبانية » :

« قد اتجهت حكومة السلطان جلال الدين أكبر في الهند إلى اللادينية والإلحاد اتجاهًا سافرًا ، وأراد أكبر - وكان من أكبر الملوك الذين عرفتهم الهند وأقواهم - أن يطمس على معالم الإسلام وملامحه الواضحة وميزاته البارزة ، بجميع ما عنده من وسائل ومواهب وطاقات ، وقد اجتمع عنده جمع من الأذكياء وذوي الكفاءات النادرة يعينونه على هذا الباطل ، ولم يكن هناك ضعف ، أو هرم في الدولة يشير إلى زوالها ، أو يدل

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى الجزء الثالث من « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » الخاص بالإمام السرهندي ، طبع دار القلم الكويت .

على ثورة يتأجج أوارها ، وكان العلم والمنطق ، والقياس الظاهر ، لم يكن يصدق أنه سيقع هناك تغيير سار أو تحول بارز في الحكومة والشعب .

هنالك قيض الله أحد عباده للإصلاح والتجديد ، فحمل راية الثورة بمفرده ، وبدأ في ثورة داخلية بقوة إيمانه ويقينه ، وعزمه وتوكله ، وروحانيته وإخلاصه حتى أصبح كل وارث للحكم المغولي أحسن من سابقه ، ثم تربع أخيرًا على هذا العرش السلطان محي الدين « أورنغ زيب عالمكير » الملك الفاضل الصالح المجاهد المسلم الغيور الذي يندر نظيره في تاريخ الحكومات الإسلامية ، وكان رائد هذه الثورة المباركة إمام الطريقة المجددية الشيخ أحمد السرهندي »[1] .

وذلك لإيثاره الإيجابية على السلبية وإثارة روح الحمية الإسلامية ، وتحريك الإيمان ، في المتسلم لزمام الحكومة ومن حوله من الوزراء ورجال البلاط ، وإقناعهم بأنه لا يطمح إلى السيطرة والسيادة ، بل لا يحلم بذلك في المنام ، ولا من

---

(١) « ربانية لا رهبانية » ، ص / ١٣٧ ـ ١٣٨ ، واقرأ رسالة المؤلف « الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها » .

حوله من تلاميذه وأبنائه ، وإنما يريد أن تكتب لهم السعادة في حماية الإسلام وتطبيق أحكامه وحماية البلاد ـ التي فتحها آباؤهم لبسط سيطرة الإسلام ، وأراقوا في ذلك دماءهم الزكية ـ من خطر سيطرة البرهمية ، والفلسفة الهندوكية ، والحضارة الجاهلية فاقتنعوا بذلك وتحول اتجاههم من محاربة الإسلام وطمس معالمه ، إلى حماية الإسلام ومحو آثار سيطرة البرهمية والوثنية التي بدت من زمن السلطان جلال الدين أكبر .

إن « أكبر » كان حرم ذبح البقرة ـ لأن الهنادك يعبدونها ويقدسونها ـ واعتبرها جريمة يعاقب عليها من يقترفها عقابًا شديدًا ، وأحل لحم الخنزير ، وبالعكس من ذلك لما فتح ابنه السلطان نور الدين جهانكير ـ الذي تأثر بإخلاص الإمام السرهندي واحتظ بصحبته فترة من الزمن ـ قلعة كانكره (Cangra) التي كانت قد استعصت على الفاتحين المسلمين ـ وكان ذلك الفتح على يد قائد هندوكي ـ لما دخل جهانكير في هذه القلعة ، كان أول ما أمر به هو بناء مسجد فيها وذبح بقرة ، وبذلك يعرف الفرق الشاسع في سياسته وسياسة والده ونفسيتها وسلوكها .

أهمية الزهد والقناعة والعزوف عن حب العلو والتنافس في الدنيا في تاريخ الإصلاح والدعوة :

والعنصر الرابع هو أن يتصف قادة الصحوة الإسلامية بشيء من العزوف عن المناصب والرئاسات والحياة الرغيدة الناعمة ، ومنافسة أرباب المناصب والجاه فيما وسع الله عليهم في الدنيا ، ويتسمون بسمة الزهد والقناعة والتوكل ـ حسب طاقاتهم وفي الحدود الشرعية من غير رهبانية وغلو ـ على قدم السلف الصالح وأصحاب العزيمة .

وهنا أنقل ما قلته في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل في كتابي « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » الجزء الأول :

« وقد رأينا الزهد والتجديد مترافقين في تاريخ الإسلام ، فلا نعرف أحدًا ممن قلب التيار ، وغير مجرى التاريخ ، ونفخ روحًا جديدة في المجتمع الإسلامي أو افتتح عهدًا جديدًا في تاريخ الإسلام ، وخلف تراثًا خالدًا في العلم والفكر والدين ، وظل قرونًا يؤثر في الأفكار والآراء ، ويسيطر على العلم والأدب ، إلا وله نزعة في الزهد وتغلب على الشهوات ، وسيطرة على المادة ورجالها ، ولعل السر في ذلك أن الزهد

يكسب الإنسان قوة المقاومة ، والاعتداد بالشخصية والعقيدة ، والاستهانة برجال المادة ، وبصرعى الشهوات وأسرى المعدة ، ولذلك ترى كثيرًا من العبقريين والنوابغ في الأمم ، كانوا زهادًا في الحياة ، متمردين على الشهوات بعيدين عن الملوك والأمراء والأغنياء في زمانهم ، ولأن الزهد يثير في النفس كوامن القوة ، ويشعل المواهب ويلهب الروح ، والدعة أو الرخاوة تبلد الحس ، وتنيم النفس وتميت القلب .

وهناك تعليلات أخرى يوافق عليها علم النفس وعلم الأخلاق ، ولا أطيل بذكرها ، وأقتصر على هذه الملاحظة التاريخية ، وألح على أن منصب التجديد والبعث الجديد يتطلب لا محالة زهدًا وترفعًا عن المطامع وسفساف الأمور ، ويأبى الاندفاع إلى التيارات ، ويتنافى مع الحياة الوادعة الراخية ، والعيشة الباذخة الثرية ، إنما هو خلافة للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد قيل له : ﴿ **ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى** ﴾[1] وأمر بأن يقول لأزواجه : ﴿ **إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين**

(١) سورة طه الآية : ١٣١ .

أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلاً ﴾[١] وهــذه سنـــة الله فيمن يختـاره لهـذا الأمر العظيم ، ومن يرشـح نفســه ويمنيهــا بهــذا المنصب الخطير ، ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾[٢] .

الحاجة إلى اقتران الصحوة بروح التضحيـة والبطولـة ، والسبب في ذلك :

والعنصر الخـامس : أن يقترن نشـاط هـذه الصحـوة بروح التضحيـــة والبطـــولـــة ، والجـــلادة والتقشف والقـــدرة على المغامرات ـ إن كان لابد منها ـ فإن الناس مـازالوا مفطورين على تقـديـر الإيمـــان القـــوي والعـــزة وروح المخـــاطرة ، وعلى الإجـلال لشيء لا يجـدونـه عنـدهم ، وتـــاريـخ الإســلام مليء بالبطولات والمغامرات ، ووجود هذا الفراغ ـ عدم وجود روح التضحية والبطولة ، والاعتداد بالإيمان والشخصية الإسلاميـة ، والـدعـوة الإيمـــانيـــة ـ خطر كبير على الـــدعـوات الصحيحـــة والصحـوة الإســلاميـة ، يسبب ذلـك نشـوء حركـــة منحرفـــة زائفة ، فاسدة العقيدة والمنهج ، سلبية هادمة مـدمرة ، يكون لهـا سحر على النفوس ، لا يبطلـه وعـظ واعـــظ ، أو مقـــال

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٨ .

(٢) « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » الجزء الأول ، ص / ١٠٥ .

لكاتب ، أو استدلال منطقي ، أو بحث علمي ، يشهد بذلك تاريخ كثير من الحركات العسكرية الثورية ، التي ظهرت باسم قلب الأوضاع الفاسدة ، أو باسم الإسلام والاصلاح ، كذبًا وزورًا أحيانًا كثيرة ، والسيل لا يمسكه إلا سيل مثله ، والتيار لا يدفعه إلا تيار أقوى منه ، والباطل القوي لا يقاومه إلا الحق القوي ، وعدم وجود روح التضحية والفداء في سبيل العقيدة الصحيحة والأهداف الصالحة ، يمهد الطريق للوقوع في شبكة الدعوات المنحرفة الزائفة ، فقد بلغ التذمر من الأوضاع الفاسدة ، وتغلب النظم الجائرة ، نهايته ، ومن لم يجد ماءً زلالاً سائغًا أروى ظمأه من الماء الفاسد العكر ـ وصدق الله العظيم :

﴿ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾[1] .

كلمة عن الصحوة الإسلامية في بلاد الأكثرية غير المسلمة والحكم الديمقراطي غير الإسلامي ، ومنهج العمل فيها :

وكلمة عن الصحوة الإسلامية في بلاد وأقطار لا يزال

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٧٣ .

المسلمون فيها أقلية وتحيط بهم هالات من سوء التفاهم والأغاليط ، والافتراءات ، والأوهام والمخاوف ، ويسود فيها الحكم الديمقراطي الشعبي ، وقد وجدت فيها صحوة إسلامية من مدة قد تفوق في قوتها صحوات إسلامية ظهرت حديثًا في البلاد العريقة في التاريخ الإسلامي والحكم الإسلامي .

أول واجب تمثيل السيرة الإسلامية المثالية النموذجية أمام غير المسلمين :

فأول ما يجب على المسلمين في هذه البلاد غير المسلمة بصفة عامة والعاملين في نطاق الدعوة والصحوة بصفة خاصة ، أن يمثلوا السيرة الإسلامية ـ المثالية النوذجية ـ إلى حد الإمكان بكل وضوح وجلاء ، فإن ذلك من أقوى أسباب احترام هذا الدين ، والحرص على دراسة مصادره وتعاليمه التي تصبغ المسلمين بهذه الصبغة المميزة ، وتسبكهم هذا السبك الجميل وتحملهم على العناية بدراسة القرآن والسيرة النبوية والشريعة الإسلامية ، وقد تخلى المسلمون ـ مع الأسف ـ من زمان عن تمثيل هذه السيرة ، وتأثروا بالتقاليد والعادات والقيم والمثل التي هي شعار الأكثرية غير المسلمة ، وبقايا الحضارة المحلية القديمة ، أو من تأثير الحضارة الغربية المادية الحديثة .

ومن المعلوم أنه ليس ميسورًا لغير المسلمين أن يطالعوا سيرة المسلمين وأعمالهم في المساجد أو المدارس ، إنما يتيسر لهم أن يشاهدوها في الأسواق ، والمكاتب ، والإدارات ، والمناسبات الخارجية الاجتماعية وذلك ما يثير فيهم الانطباعات والملاحظات الصالحة وغير الصالحة .

محاولة لتكوين الجو الهادئ في البلاد والعمل بمبدأ « التعايش السلمي » للتمكن من القيام بأعمال بنائية وعمل بتعاليم الإسلام في سهولة وكرامة :

والشيء الثاني أن يحاولوا بقدر الإمكان والطاقة في أن يسود الهدوء ، ومبدأ التعايش السلمي في البلاد ، حتى يتمكنوا من القيام بأعمال بنائية إيجابية في جو من الثقة والاحترام ، فالمؤسسات الدينية ، ومراكز النشاط الإسلامي حتى المساجد والمدارس كلها في خطر ، فيمكن أن تنطلق موجة من السخط والجنون الطائفي فتجتاح بكل ذلك .

وكذلك يمكنهم في هذا الجو من الهدوء والاحترام أن يحافظوا على شخصيتهم الإسلامية المتيزة ، ويعيشوا وفق الشريعة الإسلامية محتفظين بقانون الأحوال الشخصية ،

ويثبتوا جيلهم الصاعد على تعاليم الإسلام وعقائده وتعاليمه ، ويعلموا أبناءهم الإسلام ، ويطمئنوا إلى ما اطمأن إليه سيدنا يعقوب حين سأل بنيه وأحفاده وأسباطه ـ ﴿ **ما تعبدون من بعدي ؟** ﴾ فكان الجواب بلسان واحد ، ﴿ **نعبد إلهك وإله ءابائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون** ﴾[1] .

الاضطلاع بقيادة البلاد الخلقية ومكافحة الفساد الخلقي والاجتماعي :

ويجب كذلك أن يقبلوا مسئولية قيادة البلاد الخلقية وينهضوا بها ويدعوا إلى الحياة الشريفة النزيهة ، واحترام الإنسانية ، ويسعوا إلى إنقاذ المجتمع والبلاد من التدهور الخلقي ، والانهيار الاجتماعي ، والانتحار الجماعي الذي تسعى إليه البلاد بخطى سريعة ، فحرام أن تغرق السفينة التي فيها عدد كبير من المسلمين ، تغرق نتيجة عبادة المادة والشهوات ، والاستغلال والطمع ، والجشع ، وفشو الرشوة والخيانة ، والغدر بالبلاد ، فإن عند المسلمين بفضل تعاليم الدين وأسوة الرسول

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٣٣ .

وأصحابه حصانة خلقية تمنع من التفسخ الخلقي ، والإفلاس المبدئي ، وتعصم البلاد والمجتمع من الانهيار .

وبذلك يكون إجلال أهل البلاد واحترامهم لهم ، يمكنهم من أن يمثلوا مكانهم اللائق بهم ، وربما يمنحهم الله فرصة أخرى لقيادة البلاد .

ـ والقيادة الخلقية الاجتماعية هو المجال الوحيد الذي لا يزال شاغرًا ، يستطيع المسلمون أن يثبتوا فيه جدارتهم وقدرتهم وميزتهم ، ويصلوا عن طريقه إلى مركز القيادة .

ممارسة الحقوق المدنية والجمهورية في شجاعة وذكاء للمحافظة على الشخصية الإسلامية ، وتتبع ما يسن من القوانين وما تتجه إليه البلاد :

يضاف إلى ذلك أن عليهم أن يمارسوا حقوقهم المدنية والجمهورية في ثقة واعتزاز وشجاعة وذكاء ، لأنهم أبناء البلد الأوفياء الأمناء ، لهم من الحق ما لأي مواطن من الأكثرية الحاكمة ، وبذلك يستطيعون أن يحافظوا على مكانتهم ، وقضاء الحياة وفق شريعتهم ودينهم ، ويمنعوا التدخل في الدين والشريعة والتعليم الديني ، لذلك يجب أن يطالعوا ما يسن

من القوانين في مجالس التشريع بكل يقظة وتتبع ، ويؤثروا في انتخاب الممثلين حتى لا يؤخذوا على غرة ، ويجبروا على مالا يتفق مع عقيدتهم وشريعتهم ، وليعملوا بوصية سيدنا عمرو بن العاص لأهل مصر « إنكم في رباط دائم تشوف القلوب إليكم » .

العناية بتثقيف الجيل الجديد وترسيخ العقيدة الإسلامية المتميزة في نفوسه وعقليته :

ويقوموا هم بأنفسهم بواجب تثقيف الجيل الإسلامي الجديد تثقيفًا إسلاميًا متينًا ، وترسيخ عقيدة التوحيد ـ التي هي شعارهم والخط الفاصل بينهم وبين مواطنيهم ـ ويلاحظوا بدقة نظر وحمية دينية نظم التربية ومناهجها الرسمية والبرامج الثقافية (Cultiral Programs) ووسائل الإعلام التي تؤثر في عقيدة الأحداث والشباب ، بل الرجال والنساء المتعلمين والمتعلمات وتضعفها بل تدعو إلى ضدها ، وكل ذلك باسم الثقافة الوطنية والقومية وهي في الحقيقة « الميثالوجية الهندية » القديمة ، فيقاوموا هذه الوسائل والمؤسسات ، متذرعين في ذلك بما يمنحهم الدستور من حرية ، ويضمن لهم بعدم التدخل في العقيدة والدين ، والمساواة في الحقوق

المدنية ، وما يتمتع بـه كل مواطن من شرف ومن فرص تربيـة الأجيال على أساس عقيدته ورغبتـه ، ويكافحوا تـأثير وسـائل الإعـلام والتربيـة الثقـافيـة في نفـوس المستعين المسلمين شبـابًـا وشيوخًا ورجالاً ونساءً ، بتقديم الغذاء الصالح والدواء النـاجع والأدب الإسلامي القوي الجذاب ، ويثيروا فيهم الغيرة الدينية الكامنة .

هذا ما وجب إبداؤه والإشارة إليـه عملاً بوصيـة رسول الله ﷺ : « الـدين النصيحـة »[1] ومـا تـوفيقي إلا بـالله ، عليـه توكلت وإليه أنيب .

* * *

(١) صحيح مسلم .

المحاضرة الثانية :

منهج أفضل في الإصلاح
للدعاة والعلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

هذه الرسالة في الأصل محاضرة ألقاها سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي في شعبان سنة ١٣٨٩ هـ في قاعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة أمام طلبة الجامعة وتلاميذ كلية الدعوة المرشحين للدعوة الإسلامية في أفريقيا وغيرها من القارات ، وكان حفلاً مشهودًا حضره أكبر عدد من الطلبة ، وأكثر أساتذة الجامعة ، وكبار المسؤلين ، وقد جاءت في هذه الكلمة المرتجلة لفتات عميقة دقيقة عن تاريخ الدعوة الإسلامية وسيرها وتجاربها في الهند ، لا يجدها القارئ إلا في كتب التاريخ المبسوطة ، منثورة مبعثرة ، عابرة غامضة ، قد لا ينتبه لها ويعرف قيمتها .

وهي كلمة مستفيضة أخذنا منها ما يتصل بمنهج الإصلاح والدعوة في الحكومات الإسلامية ، وهو لب لباب الموضوع وجوهر المحاضرة ، وقد يمكن الاستفادة منها ـ إذا حالفنا

التوفيق ـ في ظروفنا المتغيرة وتجاربنا التي مررنا بها في عهدنا الأخير .

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

اختار الله للدعوة الإسلامية في الهند أصحاب قلوب رقيقة ، لأن الشعب الهندي هو رقيق الشعور قوي العاطفة ، يفعل فيه الحب والحنان ، ما لا يفعله المنطق والبرهان ، فاختار الله للدعوة الإسلامية في الهند ، أصحاب قلوب لينة خفاقة ، وعيون دامعة فياضة ، هؤلاء الذين كانت عيونهم تدمع لكل مفجوع منكوب ، وكانوا يؤون كل طريد وشريد ، ويلجئون كل من أقصته الأسرة وطردته القرية .

كان الفرق بين البرهمي وغير البرهمي أكبر من الفرق بين الإنسان والحيوان ، إن الكتب التي تناولت هذا الموضوع ، (النظام الطبقي والاجتماعي في الهند) كثيرة[1] ، ثم كان غير البراهمة طبقات ، ثم هنالك سيدات مات أزواجهن فكن يحرقن أنفسهن مع أزواجهن وكان ذلك من العادات التي تفردت بها الهند .

---

(١) ليراجع للتفصيل كتابا المؤلف « ماذا خسر العالم باغطاط المسلمين » و « السيرة النبوية » .

فكان أولئك الربانيون يلجئونهم في ملاجئهم العلمية والروحية ، يطعمونهم معهم ، ويجلسونهم على مائدة واحدة ، ما كان هنالك من المألوف أن يؤاكل إنسان إنسانًا ، ولا يزال هذا في الهند ، إذا سافرتم في القطار ترون صديقين من غير المسلمين يتحدثان ويتلاطفان ، فإذا حضر الطعام صرف هذا وجهه إلى الغرب ، وهذا وجهه إلى الشرق ، بدأ يأكل هذا وبدأ يأكل ذلك ، كأنه لا لقاء بينهما ، فهؤلاء الدعاة والمربون كانوا يعاملون أولئك اللاجئين معاملة الأولاد وكانوا يجلسونهم على مائدة واحدة ، ويفضلونهم على أنفسهم وأولادهم ، وبذلك انتشر الإسلام انتشارًا هائلاً في هذه البلاد التي تشبه قارة .

وكانوا مع هذا الزهد والابتعاد عن قبول الصلات الملوكية ، يشرفون على الحكومة ويراقبونها من بعد ، كالنار يصطلي بها الإنسان ويستدفئ بها ولا يمسها فتحرقه ، وكان ذلك إلهامًا من الله تعالى .

أنا أؤمن بأن الداعية المخلص ، لا يكون داعية إلا إذا كان ملهمًا مؤيدًا من الله ، فكانوا يراقبون الدولة ويراقبون

اتجاهاتها وميولها ، ويرون هل المجتمع الإسلامي إلى خير أم إلى شر ، وإلى صلاح أم إلى فساد ، وهل هناك اتجاه موافق للإسلام أم معارض للإسلام ؟ فإذا كان هناك اتجاه معارض للإسلام جروا الحبل من بعيد وباحتياط ، وأشاروا على الملك بما هو صالح للعباد والبلاد ، وبما فيه تأييد للدين وتقوية للمسلمين ، وقد تكون لهم يد خفية في اختيار ملك أو عزل ونصب .

فإذا سنحت لهم فرصة لكلمة حق عند سلطان جائر ، كانوا من أفصح الناس وأشجعهم ، أحكي لكم قصة واحدة :

إن محمد تغلق عرف في تاريخ الهند بالجبروت والطغيان - بل بالجنون والهوس - ويسمى في تاريخ الهند « السلطان العاقل المجنون » إنه كان رجلاً علامة ، وهو أول ملك من ملوك الهند اطلع على مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وأعجب بها ، إنه كان في آخر القرن الثامن وكان شديد الإنكار على المنكرات والبدع ، وقد عسكر مرة بقرب عالم رباني اسمه الشيخ قطب الدين منور ، وجاء العلماء والشيوخ يسلمون

عليه ، ولزم الشيخ بيته فلم يـأتـه ، وغضب الملـك وطلبـه إلى دهلي عـاصمـة البلاد ، ولمـا حضر البلاط ودخل الـديـوان رأى الأمراء والـوزراء والحكام ورجـال البـلاط واقفين سماطين[1] متخشعين مسلحين ، في هيئـة تخلع منهـا القلوب ، وكان معـه ولـده نور الـدين وكان جـديث السن لم يـزر بـلاط الملـك في حياته ، ففزع لهذا المنظر الغريب وامتلأ رعبًا ، فنـاداه الشيخ قطب الدين بصوت عال قائلاً : ياولدي ! العظمـة لله ، يقول نور الـدين : إني استشعرت فيَّ قوة غريبـة بعـد هـذا النـداء ، وزالت الهيبة من نفسي وذابت ، وبدأ الجميع عندي كأنهم قطيع من ضأن أو معز ، وسأل الملـك الشيخ وعـاتبـه قـائلاً : « إننـا مررنـا بزاويتكم فلم تشرفونـا بـزيـارتكم ومـوعظتكم » فـأجـاب الشيخ : إن هذا الفقير لا يجدر بمقابلـة الملوك ، إنـه يعيش في عزلـة ويـدعو للملـك ولجميـع المسلمين ، فعليكم أن تعـذروني في هذا الأمر ، وبعد انصرافه قال الملك لوزرائه : إنه صافح كثيرًا من الشيوخ والعلمـاء فكانت أيـديهم ترتعش خوفًـا وإشفـاقًـا ،

---

(١) أي صفين متقابلين .

أما هذا الشيخ فما وجدت في كفه لينًا وضعفًا ، وما رأيت في يده ارتعاشًا ، بل صافحني بقوة وحرارة زائدة واعتزاز نفس .

وقدم إليه الملك مائة ألف « تنكة » (قطعة ذهب) فقال الشيخ سبحان الله تكفيني أقتان من أرز وسمن بفلس واحد ، ماذا أفعل بهذا المال الكثير ؟ ولكن قيل له إن الملك يسخط إذا لم يقبل هذه الهدية وينقم منه ، فقبل الشيخ ألفي روبية وقسمها بين إخوانه وأصحابه وذوي الحاجة . هذه قصة من القصص الكثيرة[1] .

والآن أتحدث إليكم عن دور الإصلاح والتنظيم : لما رسخت الحكومة الإسلامية في الهند وانتشر الإسلام انتشارًا واسعًا في جميع أنحائها ، تأثر المسلمون بمواطنيهم الهنود ، فانتقلت إليهم عادات الجاهلية ، وانتقلت إليهم بعض العقائد الخرافية ، وتسرب إليهم الشرك والبدع وتغلغلت فيهم الفلسفة اليونانية والفلسفة الهندية القديمة ، وعن طريق

---

(١) نقلنا القصة بطولها من كتاب المؤلف « المسلمون في الهند » إتمامًا للفائدة وإكمالاً للحديث .

هاتين الفلسفتين انتقلت إليهم اتجاهات ونزعات لا يقبلها الإسلام ، فهنالك جاءت مرحلة الإصلاح والتنظيم ، ولما جاءت هذه المرحلة ، قيض الله في هذه المرحلة الدقيقة رجالاً غيارى متألمين للإسلام ، وهبوا نفوسهم وأرواحهم ومواهبهم وذكاءهم لقيادة المسلمين في هذه البلاد .

واتفق أن أكبر ملك عرفه تاريخ الهند ، هو الملك المغولى السلطان جلال الدين أكبر بن همايون بن بابر مؤسس الحكومة المغولية في الهند ، اتجه اتجاهًا معارضًا للإسلام ، ونشأ فيه عداء للإسلام وعناد شديد للدين الإسلامي وصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، وعطف شديد على البراهمة وعقائدهم وعاداتهم .

هذه مرحلة أدق من مرحلة الجاهلية المحضة ، إذا كانت بلاد لا تعرف الإسلام فقضيتها قضية سهلة ، إذا تعرفت بالإسلام فقد تعرفت بالإسلام الحقيقي والدين الخالص ، ولكن إذا ثار الملوك والحكام على الإسلام ، وانحرفوا عن الجادة وارتدوا عن الإسلام أو عارضوه ، فهنا العقدة الكبرى .

إن « أكبر » كان أولاً مغرمًا بدراسة الديانات ، كان من سوء حظه أنه كان أميًّا أو شبه أميٍّ ، لم تسمح حياته الخاصة بدراسة وثقافة - ولكن مع ذلك عنده غرام بالمقارنة بين الديانات - ، والإنسان إذا كان جاهلاً وليست عنده الوسائل الكافية للمقارنة الأمينة ، والوصول إلى النتائج الصحيحة ، فهذه محنة عظيمة ، وهذا الرجل كان يجمع بين طبيعتين متناقضتين ، جاهل ولكنه كان مفرط الذكاء ، سريع الانفعال عصبيًّا ، ومغرمًا بالمقارنة بين الديانات ، فجمع علماء أهل السنة وعلماء الشيعة وعلماء الطوائف الإسلامية التي انحرفت عن الإسلام ، وعلماء البراهمة والبوذيين والمجوس والمسيحيين ، وكان يثير موضوعًا خلافيًّا يناظر فيه هؤلاء العلماء فكانوا يتناقرون كالديك ويتناطحون كالتيوس ، وكان يتفرج على ذلك ويتسلى به ، كما كان الملوك في العصر القديم يتفرجون على قتال التيوس وبعض الطيور ، هذه المناظرات قد غرست في قلبه الشكوك وصار ينسلخ عن الإسلام رويدًا رويدًا حتى انسلخ تمامًا .

ثم العامل الثاني الذي أثر فيه وعدل به عن الإسلام ، هو

حب العلماء الزائد للدنيا وتنافسهم في الجاه والمال ، كان في بلاطه علماء يعتبرون من كبار العلماء في عصره ، ولكنهم مع الأسف الشديد ، كانوا متنافسين تنافسًا شديدًا في الجاه ، وكان كل واحد يريد أن يستأثر بالملك وكان بعضهم ادخر مالاً عظيمًا ، وكان بعضهم استخرجت من مقبرة أسلافه لَبِنَاتٌ من ذهب كان قد خبأها ، فلما اطلع هذا الرجل على هذه المناظرات واطلع على مواضع الضعف في هؤلاء العلماء الكبار ، الذين كان أحدهم المحدث الأكبر والآخر قاضي القضاة والمفتي الأكبر ، رأى أنهم لصوص الدنيا ، وأنهم لا يقلون عن عباد الدنيا في حب المال ، فانسلخ عن الإسلام .

وأقول لكم ـ أيها الإخوان ـ عن تجربة واختبار ، إن الذي يرتد عن الإسلام يكون أكثر عنادًا للإسلام ، وأكثر معارضة للإسلام والمسلمين من الذين ليس لهم عهد بالإسلام ، ومن أتباع كل ديانة ، مسيحيين كانوا أو يهودًا ، وهذا الذي تشهدونه اليوم في بعض البلاد العربية والإسلامية ، التي يحكمها الذين ولدوا في الإسلام ونشأوا في بيت مسلم وفي بيئة مسلمة ، ثم كرهوا الإسلام وأبغضوه لتأثير أجنبي أو بفعل ثقافة أو

فلسفة ، فهم دائمًا أشد عنادًا للإسلام من الهنادك والمجوس والمسيحيين .

ونعود إلى القصة فنقول ، إن « أكبر » عادى الإسلام عداءً شديدًا ، حتى يروى عنه أنه كان لا يستطيع أن يسمع اسم محمد ، كانت تثور ثائرته إذا سمع هذا الاسم الكريم ، فكان لا يملك نفسه ، وقد أصدر الأوامر الشديدة بأن كل من سجل عليه أن ذبح بقرة فإنه يقتل ، إنه أحل الخنزير وأحل الخمر ، ولكنه حرم ذبح البقر ، وحرم على رجال بلاطه أن يسموا أولادهم محمدًا أو أحمد .

هذه فترة دقيقة جدًا ، تقرر مصير الهند وتقرر مصير المسلمين في هذه البلاد التي فتحوها بدمائهم ، هذه البلاد التي هجروا فيها وفي سبيلها أوطانهم ، هذه البلاد التي عاشت فيها أجيال ، ونبغ فيها علماء ومؤلفون ، ونهض فيها دعاة ومربون هل يتجرد المسلمون فيها عن دينهم ؟ هل يلفظ فيها الإسلام نفَسَه الأخير ؟ هل يكتب عليه الفناء ؟

هنالك قام رجل له فضل على كل مسلم في الهند ، هو

الشيخ أحمد بن عبد الأحد العمري السرهندي (٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ وكان عالمًا كبيرًا مشاركًا في علوم كثيرة ، وكان إذا أراد أن يكون له مركز كبير علمي كان يمكن أن يتصدر مجلس السلطان أكبر ، وكان هناك من دونه في العلم ومن دونه في الذكاء ، ولكنه ملكته فكرة واحدة : حرام على هذه البلاد أن ترتد عن الإسلام وأن يحرم المسلمون فيها حقهم أن يعيشوا كرامًا أحرارًا شرفاء ، يزاولون شعائرهم الدينية ، ويحافظون على خصائصهم وشخصيتهم الإسلامية ، ملكته هذه الفكرة حتى حالت بينه وبين كل لذة ، فوهب نفسه وحياته لها ، ترونه في رسائله (وأصلها بالفارسية ، وقد نقلت إلى العربية) كيف يبكي دمًا وكيف يبكي على الإسلام ـ إن رسائله دافقة بالحياة . الإنسان إذا قرأ هذه الرسائل يشعر بأن فيها شعلة إيمانية ، ولهيبًا من إيمان وصراحة وحزن ، فيقول في إحدى رسائله ، كتبها إلى أحد كبار الدولة : « واويلاه ، واحزناه وامصيبتاه ، إن أتباع محمد عليه الصلاة والسلام الذي هو حبيب رب العالمين ، بهذا المكان من الذل والهوان ، والكفار والمشركون والوثنيون يتمتعون بالحرية ،

وهذا في عهد رجلٍ يتسمى بالإسلام » إنه ينعزل عن مركز الحكم ، يجلس بعيدًا ولكنه لم يزل متصلاً برجال البلاط والأمراء ، يكتب إليهم الرسائل البليغة التي تسيل عذوبة ، وتشتعل نارًا في وقت واحد ، والتي تعتبر من أقوى الرسائل الدعوية والإصلاحية في المكتبة الإسلامية . إنه لم يزل يثير غيرتهم الإيمانية ويلهب فيهم : جمرة الإيمان التي كانت مدفونة تحت الرماد فيزيل عنها التراب ، فيقول للواحد منهم : « أنت مسلم والحياة عارضة ، والملك لا يعيش دائمًا ، وهذا الحكم لا يدوم ، اتق الله في نفسك ، اتق الله في أمتك ، اتق الله في بلادك » هذا كان دأبه على مر الأيام حتى استطاع أن يجر إليه عددًا كبيرًا من الأمراء والوزراء وكانت سياسة البلاد تمر بمرحلة دقيقة جدًا ، لأنه إذا ثار ضد هذا الملك الجبار ، الملك الذي ارتد عن الإسلام ، وقد سمعنا قصة ارتداده وثورته على الإسلام ، فإن معنى ذلك أن هذه البلاد ستذهب إلى الهنادك ، فيستولون عليها لأنهم بالمرصاد ، فلم يوافق على أن يعارض الحكومة بالسيف ، لأن هذه الحكومة إذا ضعفت فمعنى ذلك أن الهنادك يستولون عليها ، وأنهم سيخلفون المسلمين ، فكان

من الاحتياط ومن الحكمة وكان من السياسة ، ألا تضعف شوكة المسلمين المادية والعسكرية ، فاقتصر على الدعوة ، واقتصر على الرفق وعلى الحكمة .

فلما مات هذا الرجل خلفه ابنه وخليفته نور الدين جهانكير وكان أحسن سيرة وأسلم عقيدة من أبيه الراحل .

طلب السلطان الإمام السرهندي إلى مقره ، وأكد على حاكم سرهند أن يوجهه إليه كيف ما استطاع ، فتوجه الإمام مع خمسة من أصحابه ومريديه ـ كانوا إذ ذاك عنده ـ ولما قرع سمع السلطان مجيء الإمام بعث الأمراء والأعيان ليستقبلوه في الطريق ونصب له خيمة بجوار قصره وطلبه في البلاط للمقابلة ، ولما دخل عليه في البلاط لم يأت بالآداب والتقاليد التي كان يلتزم بها الوافدون على السلطان ، فلفت بعض أبناء الدنيا ممن لا يخاف الله نظر السلطان إلى أن الإمام لم يراع أدب الدخول عليه ، ولم يأت بالتحية المعتادة للملوك[1] ،

(١) كانت هذه التحية تقليدًا سائدًا في البلاط منذ عهد الملك أكبر ، وكانت تعد من التأدب بالاداب الملوكية وكانت على ثلاثة أصناف ، أولها الكورنش وهو أن يضع يمينه على جبينه ويطأطئ رأسه إلى الصدر ، وثانيها التسليم وهو أن =

فسأله السلطان عن السبب ، فقال : إنني لم أزل متقيدًا بالآداب والأحكام التي دعا إليها الله ورسوله - ﷺ - ولا أعرف غير هذه الآداب ، فغضب السلطان وقال اسجد لي[١] ، فقال الإمام : ما سجدت لغير الله قط ، ولن أسجد لغيره أبدًا ، فتغيظ السلطان وزاد غضبه وأمر بفرض الإقامة الجبرية عليه في قلعة كواليار[٢] .

لقد كانت هذه الإقامة الجبرية في سجن كواليار تنطوي على حكم ومصالح دينية كثيرة تسبب له الحب والقبول في الناس وتزيده زكاء نفس وسمو روح ، وإشراق باطن ، فشمر هذا السجين كسجين مصر عن ساق الجد والاجتهاد في الدعوة والإرشاد في أولئك المسجونين الذين كانوا معه ، ونادى وراء جدران السجن بأعلى صوته : ﴿ **ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾ مما اهتزت له أركان

= يضع ظاهر الكف من يمناه على الأرض ويقوم ويضع باطنه على الرأس ، وثالثها السجدة كما يسجد في الصلاة .

(١) حضرات القدس ص ١١٧ .

(٢) أيضًا ص ١١٦ .

القلعة وارتجت الجدران ، وسمع صداه في الخارج ، يذكر بعض المؤرخين أن آلافًا من السجناء من غير المسلمين اهتدوا على يديه ، ودخلوا بصحبته وتربيته وإرشاده ودعوته في الإسلام ، وإن مئات من السجناء والمسلمين تابوا على يديه وبايعوه وتمتعوا بصحبته[١] حتى بلغوا درجات الإحسان .

كان لمرافقته دخل كبير في نشأة النزعة الدينية الجديدة في الملك جهانكير وعنايته بتعمير المساجد المنهدمة من جديد ، وشغفه بإقامة المدارس الدينية في المناطق المفتوحة ، وما ظهر منه عام ١٠٣١ هـ بمناسبة فتح قلعة كانكره من عواطف إسلامية ، وإظهار شعائر الإسلام فيها[٢] فقد أمر ببناء أول مسجد في القلعة وذبح البقرة ، وهو يدل على حدوث التحول والتقدم في التدين الذي يمكن معه القول بأنه كان فيضًا من

---

(١) كتاب Preaching of Islam (الدعوة إلى الإسلام) لمؤلفه البروفيسور آرنلد Arnold ص ٤١٢ الطبعة الثالثة . « دائرة معارف الأخلاق والديانات » ص ٧٤٨ ج ٨ .

(٢) انظر « تزك جهانكيري » ص ٣٤٠ وراجع للتفصيل الباب السابع منه وليلاحظ أن هذه القلعة كانت قد فتحت على يد قائد هندكي .

فيض مرافقة الإمام السرهندي وصحبته .

ولم يزل الشيخ مذكرًا للملك وناصحًا ومشجعًا يرشده ويوجهه ويراسله ، وقد طلب مرة من أمرائه أن يرشح له عددًا من العلماء يذاكرهم في الأمور الدينية ، فلما علم الشيخ بذلك قال : لا : إن العلماء إذا اجتمعوا فإنهم يتنافسون ويتناظرون ، فهذا يفسد الملك ، وهذا الذي حدث في العهد السابق وأضر بالإسلام ، رجل زاهد في الدنيا ، متعمق في الدين راسخ في العلم ، أفضل من أن يختار عدد من العلماء ، وهم يتصارعون ويتناظرون ويظهرون براعتهم وحذقهم ، وهذا لا أراه لك رأيًا ، وكان كما قال ، ولم يزل نور الدين جهانكير يتدرج من صالح إلى أصلح ومن حسن إلى أحسن حتى محا كثيرًا من آثار أبيه السيئة وأزال كثيرًا من بدعه ومحاربته للإسلام .

وخلف الملك نور الدين جهانكير نجله شهاب الدين الملقب بشاه جهان وهو الملك المسلم الخاشع لله ، وهو الذي لما تربع على عرش الطاؤس الذي أنفق عليه الملايين نزل وخر لله

ساجدًا يثبت عبوديته وإسلامه ويحمد الله على الملك الذي آتاه ، ولم يزل الشيخ والحبل في يده فيقبضه ويرخيه ، إذا رأى من المصلحة أن يرخيه أرخاه ، وإذا رأى من المصلحة أن يجره جره .

وخلف الشيخ أحمد ابنه النجيب المتمم لعمله والأمين على دعوته الشيخ محمد معصوم بن أحمد بن عبد الأحد السرهندي (١٠٠٧ - ١٠٧٩ هـ) وله فضل كبير في تربية السلطان « عالمكير » أورنك زيب بن شاهجهان الذي يعد من أكبر ملوك المسلمين ، ليس في الهند فقط بل في تاريخ الإسلام (يعني بعد نور الدين وصلاح الدين وبعض ملوك المسلمين الصالحين) ، هو الذي دوّن « الفتاوى الهندية » وجعلها قانونًا للدولة ، وهو الذي طبق الأحكام الشرعية بدقة وعناية ، وحفظ القرآن الكريم ، وجمع أربعين حديثًا وشرحها ، وله عوائد والتزامات لا يقدر عليها كثير من العلماء والعباد فضلًا عن الملوك والسلاطين ، هذا الرجل قلب تيار الحياة وأرسخ قواعد الإسلام في هذه البلاد وربط مصيرها بالمسلمين وبالعلم والدين وأزال خطر زوال الإسلام وجلاء المسلمين ، كما وقع في

أسبانيا قبل قرنين ، وهذه ناحية من نواحي جهاد الشيخ أحمد وتجديده الأولى .

وبغض النظر عن حياة أورنك زيب الشخصية التي اتفق المؤرخون على أنه كان فيها متدينًا ، متورعًا ، متمسكًا بالشريعة ، عاملًا بها ، محافظًا على نوافل الطاعات ، فضلًا عن الفرائض والواجبات ، نكتفي بما يتعلق بالسياسة الشرعية التي في ممكنته الواسعة وتنظيم الشعائر الإسلامية وتنفيذ الأحكام الشرعية ، وبما له من أثر عميق في المجتمع الإسلامي الهندي والإصلاح الاجتماعي .

يقول المؤرخ في حوادث العام الثاني من ولاية السلطان الموافق عام ١٠٦٩ هـ :

« أسس التقويم المتبع في الإدارة والولاية منذ عهد السلطان جلال الدين أكبر على أول « فروردي » التي تدخل فيها الشمس برج الحمل ، ويزدهر الربيع وكان تاريخ جلوس السلطان قريبًا من هذا التاريخ ، فوضع التقويم بدءًا من شهر

« فروردي » إلى شهر « اسفنديار »[١] ، وسمى الشهور « شهورًا إلهية » ، ولما كان هذا الأمر يشبه طريقة السلاطين المجوس عباد النار ، بدأ السلطان ـ مراعاة للشريعة الإسلامية ـ التقويم الهلالي العربي للشهور والسنين لجلوسه وإدارته ومهرجاناته ، وأمر بتقديم التقويم العربي الهلالي على التقويم الشمسي ، وأمر بإلغاء الاحتفال بمهرجان نوروز .

ويعلم جميع الناس أن الشهور الهلالية تتغير دائمًا ، وتحدث مشاكل وتعقيدات في استخدام التقويم الهلالي ، ولكن هذا السلطان المتدين لم يبال بمشاكل هذا التقويم ، وينتهي عن الاحتفال بمهرجان « نوروز » لتشبهها بطريقة عباد النار المجوس ـ أصلاً ـ وقرر بداية تاريخ الجلوس الثاني بغرة شهر رمضان ، وهكذا بدأ تقويمًا جديدًا للجلوس ، وأبدل مهرجان نوروز ، بمهرجان عيد الفطر[٢] .

ويذكر المؤرخ وقف السلطان للدخل الكبير الذي كان يأتي الدولة من طريق غير شرعي ، فيقول :

---

(١) وهما شهران في التقويم الإيراني القديم .

(٢) أيضًا ص ٨٣ ، ٨٤ .

« أمر السلطان بإلغاء « راهداري » - ضريبة الطريق - الذي كان يؤخذ على جميع الحدود والثغور ، وتوضع جميع وارداته في خزانة الدولة ، فكان دخلها ودخل خراج « بلغاري » الذي يسمى « ته بازاري » ... يزيد على مئات الآلاف ويدخل الخزانة السلطانية ، كما ألغى السلطان جميع الواردات التي كان دخلها من الحانات والخمارات والغرامات وما يقدم إلى الموظفين والحكام إظهارًا للشكر وغير ذلك مما يبلغ الملايين من الروبيات ، وكان دخلاً كبيرًا للدولة »[1] .

كانت الحسبة منصبًا خطيرًا في الحكومات الشرعية ، وشعارًا ظاهرًا من شعائر الخلافة الإسلامية ، وألف كثير من العلماء لبيان مسئوليات هذه الوظيفة المهمة ونوعية العمل فيها كتبًا بعنوان « الحسبة في الإسلام » وكانت هذه المهمة الخطيرة مهجورة معطلة في الحكومات المسلمة في الهند ، وأحيا السلطان هذه السنة أيضًا .

يقول المؤرخ :

---

(١) أيضًا ، ص ٩ .

« عين السلطان الشيخ عوض وجيه محتسبًا ، وأمره بأن ينهى الناس عن جميع المحرمات ، خاصة عن شرب الخمور ، وتناول الحشيش وجميع المسكرات ، وجميع الفواحش ، ويمنعهم - قدر المستطاع - من جميع المسيئات والمنكرات »[١] .

ويقول المؤرخ في حوادث ووقائع السنوات من عام ١١ للجلوس إلى ٢١ للجلوس ، الموافق عام ١٠٧٨ هـ :

« كان السلطان يزداد - كل يوم - اهتمامًا بإجراء الأحكام الشرعية وتنفيذها ، ومراعاة الأوامر والنواهي الإلهية ، فكان يصدر فرامين مفصلة لإلغاء دخل « راهداري » و « بانداري » الذي كان يبلغ مئات الآلاف من الروبيات كل عام ، وكان يدخل في الخزانة السلطانية ، وكان يأمر بإغلاق الحانات والخمارات ، ومكامن الريبة والفساد »[٢] .

---

(١) أيضًا ص ٩٢ ، ذكر مؤلف « نزهة الخواطر » اعتمادًا على كتب التاريخ بالفارسية ، أن عالمكير نسخ عام ١٦٩ هـ ثمانين نوعًا من الخراج والضرائب ، التي كان دخلها السنوي للخزانة السلطانية ثلاثة ملايين روبية .

(١) أيضًا ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ باختصار .

ويزيد قائلاً :

« أمر السلطان بإلغاء الرقص والغناء ونهى عن اجتماع الناس تحت قصر السلطان لزيارته ، ورؤية طلعته من نافذة في أعلى القصر ـ وكان هذا تقليدًا من التقاليد السلطانية المخترعة ، ويسمى « جهروكه درشن » ـ وترك نفسه الجلوس على النافذة ، استنكارًا لهذه التقاليد غير الشرعية » .

كان السلاطين المسلمون في الهند ـ حسب معتقدات الهنادك وعادتهم القديمة ـ يثقون كثيرًا بالتنجيم والمنجمين ، ويعينون الأيام والشهور لأعمالهم الخاصة حسب ما يقرر المنجمون في ضوء علم التنجيم ، فقضى السلطان عالمكير على هذه العقيدة والعادة المتبعة ، وأهم من ذلك أن الأحكام القضائية كانت تقتصر على محاكم الحكام والأمراء وأحكامها ، فعين السلطان عالمكير قضاة شرعيين وأعطاهم السلطة المطلقة فيما يتعلق بالقوانين الشرعية .

« الشعراء والمنجمون الذين كانت لهم مكانة واعتبار في الدولة ، (خاصة في عهد السلطان شاهجهان) منعوا من

ممارسة أعمالهم وعين القضاة للشؤون الداخلية والمرافعات الجزئية والكلية ، وحصل لهم من التمكن والاستقلال في شؤونهم ما بعث الأمراء وأعيان الدولة على الغبطة والحسد »[١] .

أما الناحية الثانية من نواحي التجديد فقد عارض الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي البدع والعقائد الشركية والشعائر الجاهلية المجوسية والفلسفة اليونانية ، أشد المعارضة ، وهو الذي شن الحرب على فكرة وحدة الوجود التي كان لها سحر عجيب على العقول والنفوس ، ونفوذ عميق في العلوم والآداب ، وكون معسكرًا كبيرًا له قيمته وأهميته إزاء معسكر وحدة الوجود الذي كاد يكون المعسكر الوحيد في الهند وفي البلاد العجمية ، فعارض هذه الفكرة معارضة شديدة وحاربها حربًا شعواء لا هوادة فيها ولا رفق .

---

(١) أيضًا ، ص ٢٧١٧ ، وراجع كتاب كذلك (Aurangzeb His Age) لمؤلفه الفاضل ظهير الدين الفاروقي « أورنك زيب وعصره » الباب بعنوان A. Reformer .

وأنا أقرأ لكم طرفًا من إحدى رسائله الخالدة على سبيل المثال :

كتب إليه أحد تلاميذه أن الشيخ عبد الكبير اليمني يعتقد أن الله سبحانه وتعالى يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات ، وهو من ضمن الأفكار والعقائد التي تسربت في المسلمين عن طريق الفلسفة اليونانية ، فكتب إليه يقول : « ياأخي ، إني لا أستطيع أن أصبر على سماع هذه الخرافات وإن عرقي العمري ينبض ، وإن الدم الفاروقي الذي يجري فيه يفور[١] كان قائل هذا عبد الكبير اليمني أو الشيخ ابن عربي الطائي ، إن الفتوحات المدنية[٢] أغنتنا عن الفتوحات المكية[٣] ، نحن نريد محمد العربي لا الشيخ ابن عربي ، إننا من أتباع النصوص[٤] لا الفصوص[٥] » . هذا مثال من الأمثلة الكثيرة .

(١) لا ينسى أن الشيخ أحمد ينتهي نسبه إلى سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) .

(٢) يعني التعليمات النبوية والأحاديث الصحيحة .

(٣) كتاب مشهور للشيخ ابن عربي .

(٤) يعني نصوص الكتاب والسنة .

(٥) يشير إلى فصوص الحكم للشيخ ابن عربي وهو يتضمن الشيء الكثير من مثل =

والواقع أن عمله التجديدي الأساسي الذي تدور حوله سائر أعماله الإصلاحية التجديدية ، ومنبعه الأصيل الذي تتفجر منه ينابيع جميع مآثره الإصلاحية وجهوده الثورية ، وتتحول إلى نهر يجري في العالم الإسلامي كله ، هو ذلك العمل الإصلاحي العظيم الذي تجلى في إعادة الثقة والإيمان إلى قلوب أبناء الأمة الإسلامية بخلود الرسالة المحمدية وحاجة الناس إليها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وترسيخ جذور هذه العقيدة المهمة .

ويقول هو نفسه في رسالة وجهها إلى ابن شيخه محمد عبد الله وهو يصور هذا الوضع المكفهر :

« لقد كثرت البدع والمحدثات في هذه الأيام كثرة فاحشة ، حتى ليخيل للناظر أن بحرًا من الظلمات تتلاطم أمواجه ، وأن نور السنة في هذا البحر الهائج المائج يتلألأ تلألؤ يراعات منتشرة في ظلمة الليل البهيم » .

لقد كان معين الإسلام الصافي في الهند ـ التي لم يزل أساس

= هذه الأقوال الغريبة .

الإسلام فيها ضعيفًا لأسباب وعوامل تاريخية مختلفة ، وكانت موطن شعوب مشركة وديانات وثنية ـ تتسرب إليه المخلفات والرواسب من الديانات السائدة ، وكان يخشى أن يغيب هذا الينبوع في الظلمات المتراكمة ، حتى يضل الخِرِّيت ويحار الدليل.

ولذلك لما بدأ الإمام السرهندي رحلته التجديدية وكانت أول خطوة خطاها على طريق الأنبياء وعلى نفس المنهج الذي سار عليه الرسل ، هي الخطوة نحو إصلاح العقائد وتصحيح الاتجاه ، فقد كان إباؤه عن سجدة التحية أمام السلطان جهانكير ورفضه لهذه البدعة الشنيعة عنوانًا لامعًا في تاريخ إصلاحه وتجديده ، وقد تناول في رسائله التي وجهها إلى مختلف أصحابه وأتباعه بيان حقيقة التوحيد بأسلوب واضح مبين ، وعبارات موجزة جامعة رصينة ، وقدم دلائل وبراهين على وحدانية الله ـ تعالى ـ وأنه هو المستحق للعبادة وحده ، بأسلوب يدل على رسوخه وعلو كعبه في هذا العلم ، وقام يدحض الشرك ومظاهره وتقاليده ونهى أصحابه وأتباعه نهيًا شديدًا عن الأعمال الشركية والعادات الجاهلية وتقاليد الكفار من اليهود والنصارى والمشركين ، إذ إنه لا بداية لعمل

الإصلاح والتجديد إلا به فضلاً عن نهايته وكماله .

وهنا مقتطفات من رسالة مسهبة كتبها إلى امرأة صالحة بايعته وتابت على يده ، وقد تضمنت هذه الرسالة الرد على عامة ما يبتلى به الجهلاء من المشركين خصوصًا النساء منهم ، يقول فيها :

« إن تعظيم مظاهر الشرك وأعياد الجاهلية من أعظم أنواع الإشراك بالله ـ عز وجل ـ وإن من يعتقد بصحة دينين وصلاحيتها في وقت واحد فهو مشرك ، وإن من يعمل بأحكام الإسلام وأعمال الكفر والشرك فهو مشرك ، ولا يتم الإسلام إلا بالبراءة من الشرك ومحادته ومعاداته .

إن التوحيد هو الاشمئزاز والنفور من كل شائبة من شوائب الشرك » .

ويقول رحمه الله : « إن الاستعانة بالطواغيت والأصنام في دفع الأمراض وشفاء الأسقام ـ التي راجت في المسلمين وعمت في دهمائهم ـ عين الشرك والضلال ، وإن طلب قضاء الحاجات من الأحجار المنحوتة جحود صريح بالله ـ تعالى ـ وعين

الكفر ، يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ مبينًا حال بعض الغواة الضالين :

﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمِروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالًا بعيدًا ﴾ .

وإن كثيرًا من النساء ـ لغاية جهلهن وضلالهن ـ يطلبن قضاء حوائجهن من غير الله ويسألن بأسماء ما أنزل بها من سلطان دفع البليات وكشف الكربات ، إنهن لأسيرات في أغلال الشرك وطقوسه وتقاليده .

وتتجلى هذه العقائد الشركية وتشاهد هذه الأعمال وتقاليد الجاهلية ـ بصفة خاصة ـ عندما ينتشر مرض الجدري (الذي يعرف في أوساط النساء في الهند باسم « سيتله »[1]) حيث تقع جميع النساء في الجهل المطبق ، والكفر الصريح ، ويأتين بأعمال شركية ، وقلما تجد امرأة تتقي دقائق هذا

---

(١) اسم إلهة من الإلهات المفروضة المتخيلة عند وثني الهند ، يعتقدون أنها تسبب الجدري ، ولا يرتفع هذا الوباء ، ولا يشفى المريض إلا إذا أرضيت هذه الآلهة بالنذور والقرابين .

الشرك ، ولا تُقْـدِم على أي نـوع من أنـواع الشرك بهـذه المناسبة ، اللهم إلا من عصم ربك » .

(ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦)

وقد كانت أكبر أغلوطة في هذا الصدد ، أغلوطة البدعة الحسنة ، فكان الناس قسموا البدعة قسمين : البدعة السيئة ، والبدعة الحسنة ، وكانوا يقولون : إنه ليس كل بدعة سيئة فكثير من البدع حسنة ، استثنيت من إطلاق حديث « كل بدعة ضلالة » .

إن ما قام به الإمام السرهندي من معارضة شديدة واستنكار قوي لهذا التقسيم المحدث للبدعة الحسنة والبدعة السيئة في ثقة وقوة واعتماد وبأسلوب علمي واستدلال موضوعي ، لا يوجد له نظير في كثير من الأقطار والأدوار في تاريخ الإصلاح الديني .

وهكذا استطاع أن يعيد إلى الإسلام مركزه من جديد في الهند ، ويعيد إلى السنة اعتبارها ويعيد في المسلمين الثقة بالمصادر الصحيحة وبالكتاب والسنة ، وأن يكون للإسلام

انتفاضة في الأقطار الإسلامية من شبه القارة الهندية إلى أفغانستان وتركستان ، إلى العراق وسوريا وتركيا ، وينهض جيل جديد من دعاة الإسلام الصحيح والعقيدة السليمة البعيدة من شوائب الفلسفات والانحرافات وتأثير الديانات والحضارات الجاهلية ، ونشأت جبهة قوية واعية لمعارضة البدع والمحدثات ، ودعوة سافرة إلى العمل بالشريعة المطهرة والسنة السنية البيضاء ، وإقبال عام على الإنابة إلى الله وتزكية النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، وتجديد صلة العبودية بالله تعالى في ضوء الكتاب والسنة .

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

* * *

المحاضرة الثالثة :

الدعوة الإسلامية

في العصر الحاضر

جبهاتها الحاسمة ومجالاتها الرئيسية

[النقاط التي يجب التركيز عليها في الانتفاضة الإسلامية الجديدة ، وصيانة المجتمع الإسلامي من الجاهلية ، وحماية الأقطار الإسلامية من التحديات والفتن المتجددة] .

تقديم : بقلم الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله محمد وعلى آله وصحبه وبعد !

فإن الأمة الإسلامية هي أمة الدعوة ، والدعوة الإسلامية موضوع اهتم به المسلمون على مر العصور ، ولا يزالون يهتمون به ، وقد قوي اهتمامهم به أخيرًا في مجال البحث في قضاياها ومشاكلها ، وذلك ليعرفوا مجالاتها وحاجاتها في العصر الراهن والعقبات العارضة في سبيلها ، والطريق الأجدى في الظروف التي يواجهونها ، فقد عقدت منظمات إسلامية عديدة مؤتمرات وندوات في موضوع الدعوة الإسلامية في مختلف أصقاع العالم .

ومنها المؤتمر الإسلامي الكبير حول الدعوة الإسلامية الذي عقدته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في شهر صفر الماضي عام ١٤٠٨ هـ ودعت إليه أكثر من ستمائة شخص من رجالات العالم الإسلامي ومفكريه وباحثيه الإسلاميين ليبحثوا في قضايا الدعوة ومجالاتها المختلفة ، وكان منهم سماحة الشيخ أبي

الحسن علي الحسني الندوي ، فقد ساهم سماحته في مداولات المؤتمر بعدد من الأحاديث والبحوث ، ومنها بحثه القيم في الدعوة الإسلامية الذي كان أعده مقدمًا باهتمام كبير وضمنه نتائج دراساته العميقة لتاريخ الدعوة الإسلامية ، وقد درس سماحته ما قصه القرآن الكريم من قصص الدعوة وما ورد في شأن الدعوة من منهج سديد في حديث الرسول ﷺ استخلص سماحته من كل ذلك إشارات مفيدة وإرشادات قيمة ، وبني بحثه عليها ، فجاء كلامه كخطة توجيهية جامعة لعمل الدعوة الإسلامية.

لقد ذكر سماحته في هذه المحاضرة القيمة إحدى عشرة نقطة للاهتمام بها ليمكن بها إنقاذ المجتمعات الإسلامية بل الإنسانية من الضلال ، والضياع الذي يواجهها ، ويمكن بها للداعية الإسلامي أداء مسؤلياته الدعوية بكمال ونجاح .

وأهم هذه النقاط هي وجود دعوة إيمانية قوية تملأ نفوس المسلمين حماسًا وعزيمة للعمل وتحيلهم قوة تقوم في وجه القوى المضللة والطاقات الباطلة ، ولا تدع في نفوس المسلمين فراغًا تملؤه دعوات منحرفة ونظريات فاسدة ، والفراغ لا يبقى فراغًا مدة طويلة ، ثم إن السيل لا يسده إلا سيل والحديد لا

يفله إلا الحديد .

والعالم الإسلامي اليوم يواجه خطرًا كبيرًا في هذه الناحية فإن المسلمين يجدون من أهل السداد والحق ضعفًا واستنامة ، في الوقت الذي تتحمس القوى المشبوهة في العالم الإسلامي ، فإذا لم تكن هناك دعوة إيمانية ، صحيحة متحمسة قوية ، لم يمكن صد الغزو العقائدي والفكري الذي يغشى العالم الإسلامي حينًا لآخر .

ونقطة أخرى لفت إليها سماحته هي ضرورة ترك حياة البذخ والترف التي تيسرت لكثير من الدعاة والعاملين للإسلام اليوم وسائلها ، وضرورة اختيارهم لحياة البساطة والشظف التي هي حياة أهل الجد والعمل من الدعاة والمجاهدين ، والتي عاشها أسلافنا العظماء ، ولا يمكن التغلب على حب الدنيا وكراهية الموت والاستماتة في سبيل الحق والتضحية بالنفس والمال بغيرها وهي الحياة التي تلقى دائمًا من الناس تقديرًا لائقًا ومحبة وإعجابًا ويكون لها تأثير في النفوس .

قدم سماحته بحثه هذا في الجلسة الأخيرة من جلسات المحاضرات ، وذلك في يوم ١٨ / صفر ١٤٠٨ هـ مساءً ، وكانت

القاعة التي قدم بحثه فيها مكتظة بالمندوبين والحاضرين ، واتصف البحث بالأسلوب التركيزي والجمع للجوانب المهمة من مقتضيات الدعوة ، وأسلوب الحكمة في القيام بها ، ونال البحث استحسان الجميع ، وأعجب الحاضرون به ، وكان تعليقهم عليه أنه جدير بأن يكون مضمون قرار بعينه من بين القرارات التي يعدها المؤتمر .

واقترح عدد من المهتمين بالدعوة الإسلامية أن يطبع هذا البحث كرسالة وكتاب حتى يسهل للدعاة تناوله ، والاستفادة منه ، وأبدى بعض دور النشر عزمه على طبعه ونشره ، ولكن المؤلف الموقر ـ حفظه الله ـ أراد أن تكون طبعته الأولى تحت إشرافه ، فتقدم المجمع العلمي الإسلامي للقيام بهذا العمل الجليل ، وهو يشكر المؤلف الجليل على سماحه له بهذه الخدمة ، ولله المنة وله الفضل . نرجو أن هذا الكتاب الوجيز ، الصغير في حجمه والجليل في مضمونه ، سوف يحل من نفوس الداعين إلى الله ما يستحقه من محل للإستفادة والتقدير .

محمد الرابع الحسني الندوي

٢٠ / ٣ / ١٤٠٨ هـ

١٣ / ١١ / ١٩٨٧ م

الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر
جبهاتها الحاسمة ، ومجالاتها الرئيسية

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

وبعد ! فإني أحمد الله تعالى ـ وأشكر على من يرجع إليه الفضل وله نصيب في ذلك ـ على إتاحة هذه الفرصة الكريمة للتحدث في موضوع الدعوة إلى قادة الفكر ، والمسئولين عن الجمعيات والمنظمات الإسلامية ، والعاملين في مجال العمل الإسلامي ، وذلك في مهد الدعوة الأول ، ومبعث الرسول ﷺ ، في البلد الأمين .

وحق لي أن أنشد البيت العربي القديم مخاطبًا لنفسي :

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعي
فأنت بمرأى من سعاد ومسمع

إن موضوع الدعوة أيها السادة ! موضوع مطروق معالج كثرت عنه الأحاديث وازدحمت فيه الكتابات والبحوث خصوصًا في الزمن الأخير ، وتكونت فيه مكتبة ذات قامة

وقيمة[١] ، فأريد أن أحدد بحثي في الحديث عن جبهات الدعوة الحاسمة ، ومجالاتها الرئيسية ، المقررة لمصير العالم الإسلامي ، فضلًا عن مسيرة الدعوة ، وأركز على النقاط المختارة العلمية (في ضوء دراساتي القاصرة ، وفي ضوء الواقع وتجارب الماضي) ، لحماية الأقطار الإسلامية من التحديات والفتن ، وبالله التوفيق .

١ ـ تحريك الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير المسلمة ، وإثارة الشعور الديني فيها ، فإن تمسك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام وتحمسها له ، هو السور القوي العالي الذي يعتمد عليه في بقاء هذه البلاد ، وكثير من القيادات وحكومات العالم الإسلامي في حظيرة الإسلام ، وهي مادة الإسلام ورأس

---

(١) وقد صدرت من قلم المحاضر كتب ورسائل ومحاضرات في هذا الموضوع ، منها : ١ ـ سلسلة « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » (١ ـ ٤) ، ٢ ـ « روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة » ، ٣ ـ « الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها » ، ٤ ـ « حكمة الدعوة وصفة الدعاة » ، ٥ ـ « الدعوة إلى الله ، وحماية المجتمع من الجاهلية ، وصيانة الدين من التحريف » ، ٦ ـ « منهج أفضل في الإصلاح للدعاة والعلماء » ، ٧ ـ « دور الجامعات الإسلامية المطلوب في تربية العلماء وتكوين الدعاة »

ماله ، والخامات الكريمة التي تستخدم لأي غاية نبيلة ، وهي من أقوى المجموعات البشرية وأحسنها سلامة صدر وقوة عاطفة ، وإخلاص .

وذلك مع تحقيق الشروط ، والصفات التي تستحق بها هذه الشعوب النصر من الله ، والتغلب على المشكلات ، والانتصار على العدو ، كتصحيح العقيدة ، وإخلاص الدين لله ، والابتعاد عن كل أنواع الشرك والعقائد الفاسدة ، والعادات الجاهلية ، والتقاليد غير الإسلامية ، وعن القلق ، والتناقض بين العقائد والحياة ، والقول والعمل ، وسير الأمم القديمة التي استحقت بها عذاب الله وخذلانه ، وكذلك سيرة الأمم المعاصرة التي نسيت الله ، فأنساها نفسها ، وقادت العالم إلى النار والدمار .

هذا مع تنمية الوعي الصحيح وتربيته والفهم للحقائق والقضايا ، والتمييز بين الصديق والعدو ، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر ، حتى لا تتكرر مآسي وقوع هذه الشعوب فريسة للهتافات الجاهلية ، والنعرات القومية ، أو

العصبيات اللغوية والثقافية ، ولعبة القيادات الداهية والمؤامرات الأجنبية ، فتذهب ضحية سذاجتها وضعفها في الوعي الديني والعقل الإيماني .

٢ ـ صيانة الحقائق الدينية والمفاهيم الإسلامية من التحريف ومن إخضاعها للتصورات العصرية الغربية ، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية ، والتجنب عن تفسير الإسلام تفسيرًا سياسيًا بحتًا ، والمغالاة في « تنظير الإسلام » ووضعه على مستوى الفلسفات العصرية والنظم الإنسانية ، لأن هذه الحقائق الدينية هو أساس للإسلام الدائم ، والأصل الذي منه البداية وإليه النهاية ، وإليها كانت دعوة الأنبياء ، وفي سبيلها كان جهادهم وجهودهم ، وبها نزلت الصحف السماوية .

الحذر من كل ما يقلل من قيمة الصلة بين الله والعبد والإيمان بالآخرة وأهميتها ، ويضعف في المسلم عاطفة امتثال أمر الله وطلب رضاه ، والإيمان والاحتساب والقرب عند الله تعالى ، وهذا التحول يفقد هذه الأمة شخصيتها وقوتها ، وقيمتها عند الله ، وكذلك الحذر من كل ما يقلل من شناعة

الوثنية العقائدية ، والشرك الجلي والعادات والعبادات الجاهلية ، والاكتفاء بمحاربة النظم والتشريعات والحكومات غير الإسلامية ، فإن ذلك يتجه بهذا الدين عن منهجه القديم السماوي إلى المنهج الجديد السياسي .

٣ ـ تقوية الصلة الروحية والعقلية والعاطفية بالنبي ﷺ والحب العميق له ، الذي يؤثره على النفس ، والأهل والولد ، كما جاء في الحديث الصحيح ، والإيمان به كخاتم الرسل ، وإمام الكل ، ومنير السبل . والحذر من كل العوامل والمؤثرات التي تسبب تجفيف منابع هذا الحب ، وإضعافه على الأقل وتحدث جفافًا في الشعور ، وضعفًا في العمل بالسنة ، وتجرؤًا في القول ، وانصرافًا عن الافتخار به ، والولوع بدراسة سيرته ، وكل ما يحرك هذا الحب ويغذيه ولعل البلاد العربية (بفعل أحداث ، ودعوات قومية) أحوج إلى العناية بهذه النقطة ، وأحق بها من غيرها ، ففيها كانت البعثة المحمدية ، وفي لغتها نزل القرآن ونطق الرسول .

٤ ـ إعادة الثقة في نفوس الطبقة المثقفة ، ومن بيدهم القيادة

الفكرية والتربوية والإعلامية في البلاد والحكومات الإسلامية بصلاحية الإسلام وقدرته ، لا على مسايرة العصر وتطوراته وتحقيق مطالبه ، بل على قيادة الركب البشري إلى الغاية المثلى ، وتجديف سفينة الحياة إلى بر السلام والسعادة ، وإنقاذ المجتمع البشري من الانهيار والانتحار الذي تعرض لهما تحت القيادة الغربية الخرقاء ، وأنه ليس « بطارية » قد نفدت شحنتها ، أو ذبالة قد نفد زيتها واحترقت فتيلتها ، بل هو الرسالة العالمية الخالدة ، وسفينة النجاة التي هي كسفينة نوح ، لا ينجو إلا من ركبها .

إن ضعف هذه الثقة ، أو فقدها هو داء هذه الطبقة المثقفة الناشئة في أحضان الثقافة الغربية ، أو تحت ضغطها ، وهو المسئول عن كل تصرفاتها وسبب الردة الفكرية والحضارية ، والتشريعية التي تكتسح العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وتعاني منه الشعوب المسلمة ـ التي لا تفهم إلا لغة الإيمان والقرآن ، ولا تتحمس إلا للإسلام ـ وسبب حدوث هذا الخليج العميق الواسع بين القيادات والحكومات والشعوب والجماهير ، وسبب القلق الذي يساور النفوس ،

ويستهلك القوى والطاقات في ما لا يعود على الأمة والبلاد بفائدة .

٥ ـ قلب نظام التربية والتعليم المستورد من الغرب ، المنتشر السائد في العالم الإسلامي ، رأسًا على عقب ، وصوغه صوغًا إسلاميًا جديدًا ، يتفق مع شخصية هذه الشعوب المسلمة ، وعقيدتها ، ورسالتها ، وقامتها ، وقيمتها ، لا يبعد هذا الصوغ عنه عناصر الإلحاد أو المادية ، وتصور هذا الكون تصورًا ماديًّا ، والعلوم وحدات متناثرة متناقضة ، والطبيعة حرة قاهرة ، والتاريخ حوادث غير مرتبطة خاضعة لقلق وصراع دائمين ، ولا يصلح نظام التربية والتعليم إصلاحًا جزئيًا فحسب ، بل يبتكر ابتكارًا جذريًا ، مهما استنفد من الطاقات ، وكلف من الوسائل والنبوغ والعبقريات ، وبغير ذلك لا يقوم العالم الإسلامي على قدميه وبرأسه ، وعقله ، وإرادته وتفكيره ، ولا تدار الحكومات والأجهزة الإدارية ، والمرافق العامة برجال مؤمنين أقوياء أمناء مخلصين ، يطبقون التعاليم الإسلامية في الحكومة والإدارة ، والتربية والإعلام والمجتمع ، فتمثل الحياة الإسلامية بجمالها وكمالها ، وينشأ المجتمع

الإسلامي بسماته وخصائصه .

٦ ـ حركة علمية قوية دولية ، تعرف الطبقة المثقفة الجديدة بذخائر الإسلام العلمية وتراثه المجيد ، وتنفخ في العلوم الإسلامية روحًا من جديد ، وتثبت على العالم المتمدن ، أن الفقه الإسلامي وقانونه من أرقى القوانين وأوسعها في العالم ، وهو يقوم على أساس من المبادئ الخالدة التي لن تبلى ولن تفقد صلاحيتها في يوم من الأيام ، وهي تصلح لمسايرة الحياة الإنسانية في كل زمان ومكان ، وتغنيها عن كل قانون وضعته أيدي الناس .

٧ ـ الحضارة عميقة الجذور في أعماق النفس الإنسانية وفي مشاعر الأمة وأحاسيسها ، وتجريد أمة عن حضارتها الخاصة ـ التي نشأت تحت ظلال دينها وتعاليم شريعتها ، وكان في صياغتها نصيب كبير للذوق الديني الخاص وطابع هذه الأمة الخاص ـ مرادف لعزلها عن الحياة ، وتحديدها في إطار العقيدة والعبادة والطقوس الدينية الضيق ، وفصل حاضرها عن ماضيها ، فلابد للحكومة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية من التخطيط المدني الإسلامي المستقل ، البعيد عن

تقليد الغرب الأعمى ، والارتجالية ، ومركب النقص ، ولابد من تمثيل الحضارة الإسلامية في عواصمها وفي دوائرها ، وفي بيوتها ، وفي مجتمعاتها ، وفي فنادقها ومنتزهاتها ، وإلى حد في مكاتبها وطائراتها ، وسفاراتها ، وبذلك لا يعرض العالم الإسلامي نموذجًا للحياة الإسلامية والمثل الإسلامية فحسب ، بل يقوم بدعوة صامتة للإسلام .

٨ ـ معاملة الحضارة الغربية ـ بعلومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها ـ كمواد خام يصوغ منها قادة الفكر ، وولاة الأمور في العالم الإسلامي ، حضارة قوية عصرية ، مؤسسة على الإيمان والأخلاق والتقوى ، والرحمة والعدل في جانب ، وعلى القوة والإنتاج ، والرفاهية ، وحب الابتكار في جانب آخر ، يأخذون من علوم الغرب ما تفتقر إليه أمتهم ، وبلادهم ، وما ينفع عمليًا ، وما ليس عليه طابع غرب وشرق ، ويستغنون عن غيره ، ويعاملون الغرب كزميل وقرين ، إن كان في حاجة إلى أن يتعلموا منه كثيرًا فهو في حاجة إلى أن يتعلم منهم كثيرًا ، وربما كان ما يتعلمه الغرب منهم أفضل مما يتعلمونه هم من الغرب .

٩ ـ إقناع الحكومات ـ في بعض البلاد الإسلامية التي مثلت دورًا رائعًا في تاريخ الدعوة والحضارة الإسلامي ـ المشغولة بحرب إبادة للعنصر الإسلامي ، أو عملية « تطوير للإسلام » وتفسيره وفق مصالحها السياسية ، أو أهواء قادتها الشخصية ، بأنها سياسة عقيمة لم تنجح في بلد إسلامي ، وإقناعها بتوجيه طاقاتها وامكانياتها إلى عدو مشترك ، وإلى ما يقوي البلاد والأمة .

وإقناع الحكومات المسلمة ـ المسالمة للإسلام ـ بضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية ، وتهيئة الجو المناسب ، المساعد على ذلك ، وما يستتبع هذا الأمر من سعادة وبركة ونصر من الله ، وسعي لتكوين قيادة موحدة تقوم على مبدأ الشورى الإسلامي ، والتعاون على البر والتقوى ، والشعور بالتقصير ـ على الأقل ـ بعدم وجود الإمامة العامة ، أو الخلافة الإسلامية التي كلف بها المسلمون وسيحاسبون عليها .

١٠ ـ أما بالنسبة إلى البلاد غير الإسلامية ، فالقيام بالدعوة إلى الإسلام والتعريف به بأساليب حكيمة تتفق مع

طبيعة الإسلام وروح العصر . أما البلاد التي فيها الأقليات المسلمة ، فالاهتمام بتمثيل الإسلام ، والحياة الإسلامية تمثيلا يلفت إليه الأنظار ، ويستهوي القلوب ، والقيام بالقيادة الخلقية والروحية ، وقبول مسئولية إنقاذ البلاد والمجتمع من الانهيار الخلقي ، والخواء الروحي ، والتدهور الاجتماعي الذي تعرضت له هذه البلاد ، حكومة وشعبًا ، حتى يتهيأ للإسلام أن يثبت جدارته وحاجة البلاد إليه ، ويتهيأ للمسلمين أن يقوموا بدورهم البلاغي والقيادي في هذه البلاد .

١١ ـ وأخيرًا لا آخرًا هو ما تفرضه طبيعة الإسلام وتاريخه المجيد ، وتقتضيه الفطرة السليمة ، ونفسية الإنسان الدائمة ، والأوضاع السائدة ، هو وجود حركة إيمانية دعوية إيجابية قوية ، في العالم الإسلامي ، تقترن بصفات الرجولة والطموح وعلو الهمة وبعد النظر والقدرة على مواجهة الطاقات الرئيسية القائدة التي تملكت زمام قيادة البشرية وأصبحت تتحكم في مصائر الشعوب والأقطار الإسلامية وغير الإسلامية ـ من غير حق ومبرر ـ وذلك بإيمان القائمين بهذه الحركة والدعوة القوي ، وثقتهم بفضل الإسلام وحاجة

البشرية إليه .

ويقترن نشاط هذه الحركة أو الدعوة الإسلامية بروح التضحية والبطولة والجلادة والتقشف والقدرة على المغامرات - إن كان لابد منها - فإن الناس مازالوا مفطورين على تقدير الإيمان القوي ، والاعتزاز بالعقيدة والمبدأ ، والاستهانة بالمادة واللذة ، والعزة ، وروح المخاطرة ، وعلى الإجلال لشيء لا يجدونه عندهم ، فالضعيف مفطور على احترام القوي والفقير مفطور على احترام الغني ، والأمي مفطور على احترام العالم ، حتى اللئيم مفطور على احترام الكريم ، ولأن تاريخ الإسلام مليء بالبطولات والمغامرات ، ولأن الواعين والمتتبعين لواقع الأمم والبلاد ، وأصحاب الضمائر الحية قد سئموا وضاقوا ذرعًا بسياسة الحكومات والقيادات الغربية والشرقية وأصبحوا يمقتونها ويكرهونها كرهًا شديدًا .

إن وجود هذا الفراغ - عدم وجود حركة إيمانية دعوية إيجابية قوية ، ومجتمع قوي سليم من أدواء العصر الحديث والحضارة المادية الراهنة ، يقوم على تعاليم الإسلام وقيمه

ومثله ـ خطر كبير على الوجود الإسلامي ، وعلى العقيدة الصحيحة والحياة الإسلامية ، فإن وجود الفراغ في شيء ضروري وفي مصلحة بشرية شيء غير طبيعي لا يصلح للبقاء طويلاً ، وقد يسبب ذلك نشوء حركة منحرفة زائفة ، فاسدة العقيدة والمنهج ، سلبية هادمة مدمرة ، ويعرف الدارسون لتاريخ الديانات والدعوات والحركات ، وللتاريخ العام ، أنه إذا وجدت هذه الحركة المنحرفة واقترن نشاطها ودعاويها بالتضحيات والمغامرات ، وبالتقشف ومظاهر الزهد وهتافات التحدي للطاقات الكبيرة ومواجهتها لتهديداتها وأخطارها ، بشجاعة وصمود ، ونقدها للأوضاع الفاسدة السائدة في بعض أجزاء العالم الإسلامي التي لا تتفق مع تعاليم الإسلام وقيمه ومثله ـ ولو كان في ذلك نصيب كبير من الدعاية والمظاهرة ووسائل الإعلام الجبارة ـ كان له سحر على النفوس ـ خاصة في أوساط المتعلمين وأنصاف المتعلمين ، المتألمين من الواقع المرير الذي تورطت فيه بعض المجتمعات الإسلامية ـ سحر لا يبطله وعظ واعظ ، أو مقال لكاتب ، أو استدلال منطقي أو بحث علمي ، يشهد بذلك تاريخ الخوارج في القرن الإسلامي

الأول ، وتاريخ الباطنية والفدائيين في القرنين السادس والسابع الهجريين ، وحكايات حسن بن الصباح وما كان يجري في مركزه قلعة « الموت » وتاريخ كثير من الحركات العسكرية الثورية التي ظهرت باسم قلب الأوضاع الفاسدة باسم الإسلام والإصلاح كذبًا وزورًا أحيانًا كثيرة ، وبعض الحركات والثورات المعاصرة التي استطاعت أن تجند ألوفًا من الشباب في تحقيق مآربها السلبية وأهدافها الخطيرة ، يضحون بحياتهم في سبيلها متطوعين مندفعين ، وقد استرعت انتباه العالم واستجابت لها بعض أوساط المعنيين باليقظة الإسلامية والحالمين لمجد الإسلام وعظمته ، من غير أن ينقدوها نقدًا بريئًا جريئًا في ضوء النصوص القرآنية والعقائد الإسلامية ، والدراسات المقارنة الأمينة للفرق المنتحلة للإسلام .

ويعرف قادة المسلمين ومفكروهم ، أن السيل لا يمسكه إلا سيل مثله ، والتيار لا يدفعه إلا تيار أقوى منه ، وواقع العالم الإسلامي ـ ومعذرة ـ اليوم في الجمود والاستنامة والإخلاد إلى الراحة ، وعدم وجود دعوة إيمانية قوية ، وروح التضحية والفداء في سبيل العقيدة الصحيحة ، والأهداف الصالحة ،

وعدم اكتفائهم العسكري والفكري ، نذير خطر دائما ، ومهد الطريق للوقوع في شبكة هذه الدعوات المنحرفة الزائفة التي يجد فيها شباب المسلمين والمتذمرون من الأوضاع الحالية طلبتهم ومنشودهم ، وما يرضي طموحهم ويزيل قلقهم ، وإن كان ذلك ﴿ **كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه** ﴾[١] ولكنها نفسية الإنسان وتجربة الأمم ، والحقيقة الأليمة التي يجب أن ينتبه لها كل معنيٍّ بحاضر الإسلام ومستقبله ، وسلامة العقيدة وصحة التفكير ، والإيمان بالله ورسوله وتعاليمه .

وأختم هذا الحديث القصير بقوله تعالى الذي خاطب فيه المجموعة الصغيرة من الأنصار والمهاجرين التي حثها على المؤاخاة وربط بها مصير العالم والإنسانية :

﴿ **إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير** ﴾[٢] .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

---

(١) سورة النور ، الآية ٣٩ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٧٣ .

النبي الخاتم والدين الكامل

ومالهما من أهمية في تاريخ الأديان والملل

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الرسالة

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

وبعد ، فقد عقدت جامعة ديوبند الإسلامية مؤتمرًا في موضوع : « القاديانية ، وبيان حقيقتها وخطرها » أسمته : « مؤتمر صيانة ختم النبوة العالمي » في ٢٤ ـ ٢٦ من صفر ١٤٠٧ هـ (٢٩ ـ ٣١ من أكتوبر ١٩٨٦ م) حضره كبار العلماء من شتى نواحي شبه القارة الهندية والمعنيين بالموضوع .

وإلى القراء المحاضرة التي ألقاها أستاذنا الكبير سماحة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي ، في أول احتفالاته (٢٤ / من صفر ١٤٠٧ هـ) في أردو ، لغة غالبية الحاضرين ولغة الشعب المسلم الهندي ، وكانت الكلمة مرتجلة ، عفو الساعة فيض الخاطر ، لم يعتمد فيها المحاضر على مذكرة أو نُقُول ، إنما اعتمد على دراسته للموضوع دراسة عميقة مستوعبة ، وهو صاحب كتاب « القادياني والقاديانية » الذي يعتبر من المراجع الرئيسية في الموضوع في اللغات الثلاث : العربية ، والأردية ، والإنجليزية ، وصاحب كتاب « النبي الخاتم » وهو

من أفضل ما كتب في هذا الموضوع وأقواه ، وعلى ذاكرته ، فأحال إلى المراجع ولخص النقول والمقتطفات التي استشهد بها ، وكان للمحاضرة أطيب الأثر وأعمقه في نفوس المستمعين الفضلاء .

وجزى الله خيرًا صديقنا الأستاذ نور عالم خليل الأميني الندوي رئيس تحرير مجلة « الداعي » العربية ، على نقل المحاضرة إلى العربية الفصحى ، وقد تصفح هذه الترجمة صاحب المحاضرة وتناولها بالتنقيح والحذف والزيادة ، وسرد المقتطفات والنقول بنصها مقتبسة من مظانها ومآخذها ، وضم إليها مواد جديدة ، وبذلك تمت فائدتها وازدادت قيمتها .

ومن « المجمع الإسلامي العلمي » شكر المحاضر الكبير وشكر من يرجع إليهم الفضل في عقد هذا المؤتمر وفي نقل هذه المحاضرة القيمة ، والله يتولى الجميع بالجزاء والقبول .

محمد الرابع الحسني الندوي
أمين المجمع الإسلامي العلمي العام
ندوة العلماء ، لكهنؤ (الهند)

٢٢ / من ربيع الآخر ١٤٠٧ هـ
٢٥ / من ديسمبر ١٩٨٦ م

النبي الخاتم ، والدين الكامل

وما لهما من أهمية في تاريخ الأديان والملل

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ! فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا ﴾[1] .

أيها السادة ! الذي سأتحدث عنه الآن بصفتي دارسًا متواضعًا للقرآن الكريم ، وتاريخ الأديان والملل ، دراسة مقارنة للديانات ، إنما يكون إشارات خاطفة .

ياسادة ! إن دراسة القرآن الكريم تدل على أن هناك أمرين يحملان أهمية قصوى فيما يتعلق بالدين ، وأن الله عز وجل قد وعد بتحقيقهما ، والأديان تحتاج إليهما ، وهما : « نشر الدين » و « صيانة الدين » .

---

(١) سورة المائدة الآية : ٣ .

أما الإسلام ، فقد جاءت له في القرآن الكريم إشارات واضحة إليها ، فقد قال الله عز وجل فيما يتصل بنشره :

﴿ **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾[١] .

إن قوله تعالى : ﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾ يدل دلالة واضحة على أن الدين الإسلامي سيغلب الأديان كلها ، ليس يغلبها سياسيًا فقط ، بل بقوة الحجة والبرهان ، وتسخير العقل والوجدان .

وقد جاء في موضوع آخر تبشيرًا للنبي ﷺ وإنباءً بانتشار دينه انتشارًا بالغًا : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا** ﴾[٢] .

وقد تجلى منظر ﴿ **يدخلون في دين الله أفواجًا** ﴾ في حياته ﷺ ، غير أنه تكرر وكثر في تاريخ الإسلام ، واتصل اتصالاً غير منقطع النظير .

---

(١) سورة الصف الآية : ٩ .

(٢) سورة النصر .

وجاء في سورة النور : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا** ﴾[١] .

إن التمكين في الأرض يتضمن التأكيد على « نشر الدين » ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ **الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوُا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** ﴾[٢] .

إن هذه الكلمات زاخرة بالمعاني باعثة للتفكير ، وإن التاريخ يصدق ما انطوت عليه من الحقائق .

وكذلك ضمن القرآن الكريم للإسلام الصيانة والحفظ ، والإعلان الصارخ المدهش الذي شهد به التاريخ ، وهو قوله تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[٣] .

إعلان صريح كل الصراحة من الرب الأكرم أنه هو الذي

---

(١) سورة النور الآية : ٥٥ .

(٢) سورة الحج : ٤١ .

(٣) سورة الحجر الآية : ٩ .

نزل القرآن ، وهو الذي يضمن له الحفاظ والصيانة ، شريعة وأحكامًا ، ولغة وأدبًا ، وفهمًا وتفسيرًا ، بل يضمن ببقاء شعوب وبلاد تنطق بلغة القرآن وتستخدمها ، فلا بقاء للغة إلا ببقاء من يتكلم ويتفاهم بها ، ويغار عليها ، وذلك يشمل بقاء آدابها وقواعدها ، ومكتبتها وحركة التأليف .

ياسادة ! التاريخ يدل ـ ولا أقول : إن التاريخ تفسير للقرآن الكريم ، لأن ذلك يكون اجتراءً كبيرًا ، ولكني أقول : إنه تصديق له ـ على أن الأديان الأخرى لايشك في نجاحها فيما يتعلق بانتشارها ، فقد فتح بعضها في عهد قريب نصف الكرة الأرضية ، وبعضها ربعها ، وبعضها عَمَّ العالم من شرقه إلى غربه .

ومن بين الديانات التي تركت أثرًا عميقًا على بلاد العالم ، وعلى المجتمع البشري والفكر البشري ، ديانتان جديرتان بالذكر ـ كما تؤكد دراسة تاريخ الديانات ـ البوذية والمسيحية .

أما البوذية فقد عمت آسيا الوسطى كلها ، ونفذت إلى أفغانستان وتركستان بما فيها سمرقند وبخارا ، وتدل

الحفريات والاكتشافات على أن الحضارة البوذية كانت قد سيطرت على المناطق الممتدة بين « باتلي بترا » في شرق الهند ، وبين ضفاف البحر الأبيض المتوسط في الغرب ، حتى تأثر بها النظام الحضاري والفن المعماري . إن هذه الديانة قد بسطت نفوذها في رقعة كبيرة في العالم ، وانتشرت في الصين ، واليابان، ولا تزال موجودة في الصين ، وقد تسربت في تفكير علماء ديانات أخرى متأخرة وعلماء علم التوحيد والكلام والفلاسفة فيها .

وتليها المسيحية ، وبالتاريخ أؤكد أنها حققت نجاحًا كبيرًا في الانتشار والسيطرة ، فقد تخطت حدود فلسطين في وقت باكر وغزت أوربا ، ولما تنصر قسطنطين وتربع على عرش القيصرة في أوائل القرن الرابع المسيحي ، وتنصر معه الانتهازيون ورواد الجاه والمناصب ، وكانوا مشركين وعبادة الأوثان في داخلهم ، أصبحت بتأثيرهم المسيحية مزيجًا من وثنية وديانة شركية ، وشعائر مسيحية[١] ، وأصبحت ديانة روما الرسمية ، ودانت بها شعوب أوربية وبلاد في القارة ،

(١) راجع للتفصيل (الصراع بين الدين والعلم) لمؤلفه درابر (Drapper) الأمريكي : Conflict Between Religion and Science .

كانت تحت سيطرة بيزنطية السياسية والحضارية ، وأصبحت قسطنطينية عاصمتها الدولية ، وانتشرت في بلاد الشام (بما فيها سورية ، وفلسطين ، ولبنان ، والأردن الحالية) .

غير أن هاتين الديانتين العالميتين ـ فيما يتعلق بصيانتهما وبقائهما واحتفاظهما بروحهما وأصالتهما ـ قد أخفقتا في ذلك بالقدر الذي نجحتا في الانتشار ، فإنهما لم تلبثا أن وقعتا فريستين للمؤامرات الداخلية والخارجية ، والتحريفات العقائدية والانحرافات العملية .

إن تاريخ البوذية يدل على أن الديانة التي جاءت لإصلاح المجتمع والقضاء على التفرقة الطبقية والعرقية ، وثورة على الوثنية المتطرفة ، لم تلبث أن تورطت في نحت الأوثان وعبادة الإنسان ، ونكتفي هنا بشهادة واحدة لعالم متخصص في تاريخ الديانات الهندية .

يقول الأستاذ الهندوكي الفاضل (C. V. Vaidya) سي. وي. ويديا ، في كتابه : « تاريخ الهند الوسطى » وهو يتحدث عن عهد الملك هرش الملك البوذي (٦٠٦ ـ ٦٤٨ م) :

كانت الديانة الهندكية والديانة البوذية وثنيتين سواء

بسواء ، بل ربما كانت الديانة البوذية قد فاقت الديانة الهندكية في الإغراق في الوثنية ، كان ابتداء هذه الديانة ـ البوذية ـ بنفي الإله ، ولكنها بالتدريج جعلت « بوذا » الإله الأكبر ، ثم أضافت إليه آلهة أخرى مثل (Bodhistavas) على مر الزمن ، لاسيما أرسخت الوثنية قدميها في المدرسة البوذية الفكرية التي تسمى « مهايانا » بالتأكيد ، وقد بلغت أوجها في الهند ، حتى أصبحت كلمة « بوذا » (Buddha) مرادفة لكلمة « الوثن » أو « الصنم » ، في بعض اللغات الشرقية[١] .

وقد رأيت بأم عيني المدينة التي اكتشفت من خلال الحفريات التي تمت في (Taxila) « تكسلا »[٢] فرأيت من

---

(١) مثل الفارسية واللغات المنشقة عنها كالأردية ، فهي تعبر عن الوثن أو الصنم بكلمة « بت » وهذا التعبير منتشر في الشعر والأدب ، وكلام الناس في إيران والهند ، والناس في الهند يطلقون على « بوذا » كلمة « بدها » فيقولون : « جوتم بدها » وكلمة « بده » و « بت » متقاربتان نطقًا وكتابة . (نقلاً عن السيرة النبوية » لصاحب المحاضرة) . وانظر :
History of Mediaeval Hindu india : C. V. Valdya Vol.I. p. 101.

(٢) مدينة أثرية في ضواحي راولبندي وإسلام آباد في باكستان .

تماثيل « بوذا » مؤسس البوذية (حوالي ٥٦٦ ـ ٨٦ ق . م) الكثرة الكاثرة التي تجعل نفس الإنسان تعافها وتقلص منها ، وإني أستخدم هذا التعبير عن قصد ، حيث عشت لحظة هذه الحالة من الامتعاض والقلص عندما رأيت لبوذا مئات من التماثيل الصغيرة والكبيرة والدقيقة والعريضة ، والطويلة والقصيرة ، والجميلة والدمية .

وعلى ذلك فإن الديانة التي جاءت لمحو عبادة الأصنام ، تورطت هي عما قريب في ذلك .

وهنا تتجلى قدرة الله عز وجل ، حيث إن الحركة التي نهضت لمحو عبادة « بت » (الوثن) صارت فريسة عبادة « بده » في هذه السرعة العجيبة ، حتى صارت عبادة « بت » (الصنم) شعارًا لها ، وأنها هي التي وهبت الثروة اللغوية والفكر البشري كلمة جديدة هي كعملة دولية متداولة في العالم ، وهي كلمة « بت » ، وكذلك عبادة الشخصية الخاصة وتقديسها وتركيز جميع الطاقات الفكرية ، والمراقبة على الإنسان الواحد ، إنما نشأ اتجاهها من البوذية ليس إلا .

أما المسيحية ، فقد اعترف المؤرخون المسيحيون بدورهم ، بأنها وقعت فريسة التحريف بالسرعة التي ينقطع نظيرها في تاريخ الديانات ومسيرتها ، فقد تورطت في القرن الأول في المؤامرة التي نسجها بولس الراهب (Saintpaul) في القرن المسيحي الأول ، فنشأت مسيحية جديدة ونظام عقائدي واجتماعي ، ونظام عبادة جديد، لا يتصل بسيدنا المسيح ، النبي الصادق الداعي إلى التوحيد الخالص ، إلا بالاسم . والمسيحية الجديدة هي عطاء « بولس » الراهب ، ولو قرأتم الكتب المؤلفة في هذا الموضوع حديثًا ، لعرفتم أنه لم تقع ديانة ما فريسة المؤامرة التحريفية بالسرعة التي وقعت بها المسيحية ، يتحدث كاتب مسيحي فاضل عن مدى تغلغل عقيدة التثليث في المجتمع المسيحي ، منذ أواخر القرن الرابع الميلادي ، فيقول :

« تغلغل الاعتقاد بأن الإله الواحد مركب من ثلاثة أقانيم ، في أحشاء حياة العالم المسيحي وفكره ، منذ ربع القرن الرابع الأخير ، ودامت كعقيدة رسمية مسلَّمة ، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحي ، ولم يرفع الستار عن تطور عقيدة التثليث وسرها ، إلا في المنتصف الثاني للقرن

التاسع عشر الميلادي[١] .

ويتحدث عالم مسيحي (Ernest De Bunsen) فيقول :

« إن العقيدة والنظام الديني الذي جاء في الإنجيل ، ليس الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله ، إن مرد النزاع القائم بين المسيحيين اليوم وبين اليهود والمسلمين ليس إلى المسيح ، بل إلى دهاء بولس ذلك المارق اليهودي والمسيحي ، وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم (Essenie) والتمثيل ، وملئه هذه الصحف بالنبوءات والأمثلة ، إن بولس في تقليده لاستفانوس (Stephen) داعي المذهب الإيساني ، قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية ، إنه واضع ذلك المزيج من الأحاديث والقصص المتعارضة التي يحتوي عليها الإنجيل اليوم ، والتي تعرض المسيح في صورة لا تتفق مع التاريخ أصلاً ، ليس المسيح ، بل بولس ، والذين جاءوا بعده من الأحبار والرهبان ، هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الديني الذي تلقاه العالم المسيحي كأساس للعقيدة المسيحية

---

(١) ملخص ما جاء في دائرة « المعارف الكاثوليكية الجديدة » مقال « التثليث المقدس » ج ١٤ ، ص ٢٩٥ .

الأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرنًا »[١] .

وهنا يتجلى إعجاز القرآن ، وإني أعتقد أن الكلمة الواحدة التي جاءت في القرآن الكريم ، تصف أبناء المسيحية ، تكفي سببًا في إيمان دارس منصف بالقرآن وإعجازه ، وبصدق النبي الأمي الذي نزل عليه ، وكونه منزلًا من عند الله عز وجل ، ما أروع الحقيقة التاريخية التي نطق بها القرآن الكريم على لسان أميٍّ ولد في الصحراء وعاش فيها ، والتي يصدقها التاريخ في أدب جم وفي خضوع وانقياد واستسلام ، ويدهش المؤرخون عندما يفكرون في مدى صدق هذا التعبير .

وبالمناسبة أود أن ألفت انتباهكم إلى أن هناك كثيرًا من الألفاظ والكلمات فقدت ـ عندما انتقلت من لغتها الأصيلة التي ولدت فيها إلى لغات أخرى ، كاللغة الفارسية والأردية ـ شيئًا كثيرًا من قوتها ، ووقع فرق كبير في مفهومها الحقيقي ، لأن الألفاظ والكلمات لها رحلة تاريخية كرحلة القوافل البشرية ورحلة الحضارات ، إنها تفقد كثيرًا من طراوتها وغضارتها عندما تقوم بهذه الرحلة ، وتتفاعل مع أشياء كثيرة جديدة.

---

(١) Islam or True Christianity, p. 128

وعلى ذلك فإن كثيرًا من الكلمات التي استعارتها الأردية من العربية يصعب على الإنسان أن يفهمها في معناها الصحيح وقوتها الدافقة ... من بينها كلمة « الضلالة » فقد تفهم منها معاني كثيرة ، منها فساد العقيدة ، وفساد الجهل ، والانحراف ، والحيد عن الطريق وما إليها ، وكلها ضلال ، ولكن كلمة « الضلالة » أعمق معنى ، وأقوى أثرًا ، وأبعد مدى من هذا الضلال الجزئي المحدود . إن دراسة الإنسان التاريخية ، وقوته الاستنتاجية ، وقدرته على استخلاص النتائج الصحيحة تعود حائرة ومنقادة عندما تلاحظ أن النبي الذي لم يدرس تاريخ المسيحية قط ، ولم تكن لديه وسائل معلومات عنها ، ولم تثبت عنه زيارة بلد مسيحي إلا لساعات معدودات ، كيف أجرى الله عز وجل على لسانه الحقيقة الكبرى الصادقة ، حيث قال اليهود : ﴿ **المغضوب عليهم** ﴾ بينما قال بالنسبة للمسيحيين : ﴿ **الضالين** ﴾[1] .

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره عن عدي بن حاتم ، قال سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ قال : هم اليهود ، ﴿ ولا الضالين ﴾ قال: النصارى هم الضالون ، وعن أبي ذر قال : سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم قال : اليهود ، قلت : الضالين ، قال : النصارى .
قال ابن أبي حاتم ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافًا (تفسير ابن كثير ص ٥٣ ـ ٥٤ ج ١) .

إن هذه الكلمات وحدها تكفي دلالة على كون القرآن الكريم منزلاً من الله عز وجل ، وكونه وحيًا إلهيًا ، حيث كان بالإمكان أن تستخدم للمسيحيين عشرات من الكلمات ، واللغة العربية من سعتها بالمكان الذي كان بالإمكان فيه أن تُسْتَخْدَمَ خمسون كلمة تؤدي هذا المعنى ، وكان بالإمكان أن تنطبق جميعًا على المسيحيين .

غير أن الله أراد فرقًا واضحًا مكشوفًا بينهم وبين اليهود ، إذ أطلق على اليهود : ﴿ المغضوب عليهم ﴾ ومن قرأ تاريخهم شهد في ضوء التاريخ وفي ضوء اعترافاتهم هم ، ونظرًا للأثر السلبي التخريبي الذي تركوه على الأخلاقيات والاتجاهات والممارسات البشرية ، والمجتمع البشري ، ونظرًا لما عاملهم به الله عز وجل ، والعصيان والبغي اللذين تميزوا بهما عبر التاريخ ، وحرموا من أجله نصر الله وعونه ، بأنه لا تنطبق عليهم كلمة انطباق ﴿ المغضوب عليهم ﴾ .

والذي يقرأ كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) أو يقرأ على الأقل كتاب (اليهودي العالمي) (The International Jew) لمليونير العالمي هنري فورد (Henry Ford) الذي جاءت فيه مقتطفات من الكتاب الأول ، تقشعر جلوده

بالاطلاع على المخططات العالمية الرهيبة لتدمير الإنسانية وإفساد الأخلاق وتشويه المجتمع والأجيال الصاعدة في كل عصر ومصر ، منها (بالاختيار والاختصار) :

١ ـ محاربة رجال الدين في جميع الديانات وتحطيم رسالتهم ومكانتهم[١] .

٢ ـ خلق أدب قذر ، لا منطق فيه[٢] .

٣ ـ إطلاق الحروب الكونية[٣] .

٤ ـ اللعب بالحكام كلعب الشطرنج[٤] .

٥ ـ إفساد الشباب عن طريق التعليم والأدب والروايات والمسرحيات[٥] .

ويكفي اعتراف وشهادة واحدة بهذه المؤامرة العالمية ، وهو ما جاء في البروتوكول الأول ، يقول حكماء صهيون :

« وقد أصبح انتصارنا أسهل بفضل الحقيقة الواقعة وهي

---

(١) اليهودي العالمي ، تعريب خيري حماد ، ص ٩٤ .

(٢) ص ٩٥ .

(٣) ١٠٧ . (٤) ١٣٩ . (٥) ص ١٨٣ .

أننا في علائقنا مع الرجال الذين نرغب في إقامة علاقات معهم ، كنا نعزف دائمًا على أكثر الأوتار حساسية في العقل البشري ، كالحسابات النقدية والعواطف الغرامية ، والافتقار إلى الاستقرار في حاجات الإنسان المادية ، وكل مظهر ضعف من هذه المظاهر ، يعتبر كافيًا لشل الحوافز ، إذ يسلم إرادة الناس إلى ميول الذي تمكن من ابتياع نشاطاتهم »[١] .

أما من درس تاريخ المسيحيين فإنه يشهد بأنه لا تنطبق عليهم كلمة مثل انطباق ﴿ الضالين ﴾ عليهم ، فقد كان شأنهم شأن سالك الطريق ، يترك الطريق المستقيم المؤدي إلى غايته ، ويأخذ طريقًا معاكسًا يسلك به إلى الوراء ، ولا يزال يواصل السير عليه فيزداد بعدًا على بعد عن غايته المتوخاة ، وكما يقول الشاعر العربي :

شتان بين مشرق ومغرب

والسبب في ذلك أن الله قدر لهذه الأديان الانتشار والامتداد ، وكان ذلك مؤسسًا على حكمته ، فقد اهتدى بها ملايين من البشر قبل نزول هذا الدين الأخير ، وقبل أن

---

(١) اليهودي العالمي ص ٢٥١ .

يبعث النبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ .. غير أنها لم تنزل لتبقى إلى يوم القيامة فلم يضمن الله لها الحفظ والصيانة ، ولم يرد بذلك نص في القرآن الكريم ، وإنما جاء فيه في شأنها :

﴿ بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾[1] .

وهنالك فرق واضح بين ﴿ إنا له لحافظون ﴾ وبين ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ حيث إن الله تكفل الحفظ بالنسبة للإسلام ، ولم يضمنه بالنسبة لهذه الأديان ، وإنما ألقى هذه المسؤلية على أبنائها .

والسبب الأساسي في ذلك هو عدم وجود عقيدة ختم النبوة فيها ، وبما أنه كان من المقدر أن يأتي النبي الخاتم والنبوة الخاتمة ، فلم يجعل الله حصارًا لهذه النبوءات الزمنية والمحلية ، ومنعًا لإمكان المتنبئين ، فظل المتنبئون يظهرون في فترات قصيرة ومحلات قريبة ، وظلت دعوتهم تفعل فعلها في الناس ، وتثير قلقًا وبلبلة نفسية ودينية .

والدارس لتاريخ اليهودية والمسيحية يعلم أن كثرة المتنبئين كانت فتنة كبرى ومأساة كبيرة لليهودية في دائرة نفوذها ،

(١) سورة المائدة الآية : ٤٤ .

والمسيحية في دائرة نفوذها .

وقد لفت انتباهي إلى ذلك لأول مرة ، الشاعر الإسلامي الكبير العلامة الدكتور محمد إقبال ، فقد كان ـ فيما أعلم في دراستي ـ أول من أكد أن ختم النبوة وسام لهذه الأمة ونعمة كبرى أنعم الله بها عليها ، وكأنه قال : إن الإنسان لا يحتاج إلى أن يرفع رأسه بعدئذ مرة بعد أخرى إلى السماء في انتظار الوحي ، ولينظر إلى الأرض ، وليستخدم طاقاته في إعمار الأرض وتحقيق الغرض الذي من أجله جعل خليفة الله في الأرض ، وليصرف قواه في إعداد الوسائل والتسهيلات للإنسان وتهيئة ما يسوق إليه السعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة . وأكد العلامة أن ختم النبوة نعمة عظيمة أنقذت الأمة من القلق والصراع النفسي والتورط في المؤامرات[١] وهذا بالعكس من الديانتين العظيمتين اليهودية والمسيحية ، فقد تعرضتا لهذه المشكلة ـ وبالأصح المحنة ـ مدة طويلة كانت لها الشغل الشاغل والمستنفد لطاقاتها وعناية علمائها وأحبارها .

---

(١) راجع للتفصيل كتاب الدكتور محمد إقبال : (Reconstruction of Religious Thought in Islam) وترجمته بالعربية « تجديد الفكر الديني في الإسلام » لعباس محمود العقاد .

يقول البرت ايم تايمسن (Albert M. Taymson) عضو المجمع التاريخي اليهودي الأمريكي البريطاني في « دائرة معارف الأديان والأخلاق » :

يكثر الحديث في تاريخ اليهود عن المتزعمين الذين كان كل واحد منهم يدعي أنه « المسيح الموعود » وذلك في الفترة التي أعقبت تجريد الحكومة اليهودية عن الحرية ، ودامت إلى عدة أجيال ، وكان هؤلاء المبشرون بالعهد الزاهر والغد الباسم ، لايزالون يبعثون في اليهود - في أحلك عصورهم - أمل العودة إلى وطنهم الذي أُجْلي منه آباؤهم في الزمن الماضي ، وكان أكبر عدد من هؤلاء المتزعمين ينهض في أمكنة وأزمنة يبلغ فيها اضطهاد اليهود أوجه ، وكانت تلوح طلائع الثورة على هذا الوضع المخزي ، وكانت هذه الحركات غالبًا تتسم بالسمة السياسية ، وقد غلبت الصبغة السياسية على هذه الحركات في الزمن الأخير ، ورغم أن هذه الحركات لم تكن تتجرد عن المظهر الديني تجردًا كاملاً ولكنها كانت في غالب الأحيان تشجع على البدع ، وتوسع بذلك نفوذها ، وتقوي سلطانها ، لذلك كانت جنايتها عظيمة على التعاليم اليهودية الأصيلة ، وتنجم فرق متطرفة تنضم أخيرًا إلى

المسيحية أو الإسلام [١] .

وبذلك كان الشيء الكثير من قواهم الفكرية ينفد في تصديقه أو تكذيبه ، وظل العالم اليهودي والمسيحي فريسة هذه الفتنة عبر قرون ، ولم يكونوا ليصرفوا همتهم إلى أغراض أخرى ، في هذا الوضع الذي مُنوا به .

وهنا تتجلى قيمة الحديث الذي نقرؤه ، وما أدركت قيمته إلا عندما أدركت قيمة ختم النبوة ، واطلعت على الصراع النفسي والفكري الذي عاشه علماء اليهودية والمسيحية زمنًا طويلاً ، جاء في الخبر الصحيح :

« جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقال : ياأمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم ، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا ، قال : وأي آية ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي** ﴾ فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ : والله إني لأعلم

---

(١) دائرة معارف الأديان والأخلاق (Encyclopaedia of Religion and Ethics) ـ ج ٨ ، ص ٥٨٨ ـ نقلاً من كتاب « النبي الخاتم » لصاحب هذه المحاضرة .

اليوم الذي نزلت على رسول الله - ﷺ - والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ ، عشية عرفة يوم جمعة »[١] .

فأجابه سيدنا عمر - رضي الله عنه -: « قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ ، وهو قائم بعرفة يوم الجمعة » .

أي أن ذلك اليوم كان عيدًا بدوره ، فلا يحتاج إلى أن نتخذه عيدًا ونضفي على اليوم قيمة ، وهو ذو قيمة كبيرة عندنا من قبل .

وإني بدوري أشيد بفهم ذلك العالم اليهودي ، وقد كان قوله شهادة تاريخية ذات قيمة كبيرة ، وهي موثوق بها ، نظرًا للقرائن ونظرًا للرواية والدراية ، إنه أكد أنه لم يتم في اليهودية إعلان بختم النبوة ، ولو كان ذلك العالم اليهودي أمامنا الآن لرأينا أثر الألم والتحسر على وجهه ، ولو أمعن أحد في عمق هذه الألفاظ وقوتها ، لأدرك إلى أي حد مدى ذلك الألم والحسرة اللذين كان يشعر بهما ، مما يدل دلالة واضحة على أن مثل هذا الإعلان بختم النبوة وحفظ الدين لم يكن في دينه ،

---

(١) رواه البخاري وأصحاب الصحاح والسنن ، والإمام أحمد ، واللفظ لأحمد .

وإنما خص الله هذه الأمة بهذه النعمة وأكرمها بها .

وقد ضمن الله حفظ الدين عن طريق العلماء الربانيين ، وخلفاء الرسول ﷺ ، وظلت المسؤليتان ـ مسئولية نشر الدين ومسئولية حفظه وصيانته ـ متكافئتين في تاريخ الإسلام ، غير أن نشر الدين لا يحتاج إلى الصفات الدقيقة العميقة السامية التي تحتاج إليها مهمة صيانة الدين وحفظه ومسئوليته ، فقد تم نشر الدين عن طريق الملوك والسلاطين وفاتحي البلاد ومؤسسي الحكومات كذلك ، وقد أسلم في عهد خلافة الوليد ابن عبد الملك الأموي ـ الذي لا تعتبر خلافته مثالية ـ وبعض من خلفه من الخلفاء الأمويين ، ملايين بل ملايين من البشر ، لقد غزا الإسلام القلوب على عهد الخلفاء والسلاطين بالسرعة التي غزت بها جنودهم الرقعة الأرضية ، وقد وصل عقبة بن نافع فاتحًا إلى طرابلس ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب الأقصى ، وألقى بفرسه في المحيط الأطلسي وقال : « يارب لولا هذا البحر ، لمضيت في البلاد مجاهدًا في سبيلك »[1] ، وقد زرت خلال رحلتي للمغرب ، ذلك المكان

---

(١) ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

الـذي وقف بـه عقبـة والـذي يسمى إلى الآن « أسفى » كأنـه قال : ياأسفى ! يمنعني هذا البحر من المضي إلى الأمام !!

على كل فـإن فريضـة نشر الإسـلام سـاهم فيهـا الملـوك والسـلاطين والـدعـاة والمربـون بنصيب مـوفـور ، وجـزاهم الله خيرًا ، ولست ممن ينكرون لهم كل فضـل في تـاريـخ الإسـلام ويعرضون لهم صورة قاتمة سوداء مجردة عن كل مـا يستوجب الشكر والاعتراف ، كما يفعل بعض الكتـاب والنقـاد ، فقـد تم نشر الإسلام وتمديد دعوتـه عن طريق ملوك بني أميـة والملوك الآخرين على نطاق واسع .

ولكن واجب صيانة الإسلام من التحريف ، والمسلمين عن الانحراف والحفاظ على الـدين ، والـذب عن حوزتـه ، يحتـاج المرء من أجل القيام به من الصفات الدقيقة السامية المثـاليـة ، والقـوة الروحيـة الـداخليـة ، والثقـة بخلـود الـدين ، والغيرة عليـه ، والقـدرة على التمييز الـدقيق بين الجـاهليـة والإسـلام ، والإشراك والتوحيد ، والسنـة والبـدعـة والامتيـاز بـالاشتغـال بالحديث الشريف[1] ومطالعة تاريخ المصلحين المجددين للدين

---

(١) والتفصيل في رسالتنا « دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته »=

في عصور مختلفة[١] إلى ما يحتاج إليه بطبيعة الحال من يستعمله الله في نشره ، ولذلك فإن هذا الواجب وضع على عاتق العلماء ، ونائبي الرسول ﷺ ، وخص به العلماء الربانيون المتفقهون في الدين الغيارى عليه ، المميزون بين الإسلام والجاهلية ـ بجميع أنواعها وألوانها ـ المطلعون على تاريخ الديانات والصحف التي تعرضت لتحريفات المحرفين وأغراض المغرضين ، وقد جاء في حديث صحيح : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين »[٢] .

وما كانت لتجري هذه الكلمات العميقة المعاني ، والدقيقة الدلالات إلا على لسان نبي مرسل صادق مصدوق ، فلو قرأت تاريخ الإصلاح والتجديد في الإسلام ، والمساعي والمجهودات التي قام بها العلماء والأئمة ، والقائمون بحفظ الدين ، لوجدت جميع الجهود المبذولة في سبيل الحفاظ على الدين تأتي تحت هذه العناوين الثلاثة ، إن للكلمات أعماقًا وآفاقًا ، هي

= فلتراجع ، طبع المجمع الإسلامي العلمي ندوة العلماء لكهنؤ .

(١) ليرجع إلى سلسلة « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » طبع دار القلم الكويت ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ .

(٢) مشكاة المصابيح ، كتاب العلم ، الفصل الثاني ، ص ٣٦ .

أوسع وأعمق مما تبلغ إليه فهوم الرجال وتحد بحدود النماذج والأمثال .

« ومن الحقائق التاريخية أن تاريخ الإصلاح والتجديد متصل في الإسلام ، والمتقصي لهذا التاريخ لا يرى ثغرة ولا ثلمة في جهود الإصلاح والتجديد ، ولا فترة لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف ، ويكافح الفساد الشامل ويرفع صوت الحق ، ويتحدى القوى الظالمة أو عناصر الفساد ، ويفتح نوافذ جديدة في التفكير ، والدارس لهذا التاريخ والمتتبع لحوادثه وشخصياته ، لا يعرف عهدًا قصيرًا ساد الظلام فيه على العالم الإسلامي ، وخبت مصابيح الإصلاح ، وخفت أصوات الحق ومات الضمير الإسلامي وتبلد الشعور ، وأضرب الفكر الإسلامي عن العمل »[1] .

وإن الأمة الإسلامية ـ رغم التحديات والمؤامرات ، والثورات والتطورات التي لم تسبق في تاريخ أمة أو ديانة ـ لم تتعرض لانحراف جماعي ، على مدى المجتمعات والبلاد والطبقات ، وإن الدين الإسلامي لم يتعرض لتحريف جذري

---

(١) نقلاً من كتاب « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » لصاحب هذه المحاضرة .

في عقائده وأركانه وفرائضه ، وفي المفاهيم الدينية ، فالعقائد هي العقائد ، والأركان هي الأركان ، والشعائر هي الشعائر ، والكتاب هو الكتاب والسنة هي السنة ، وكل ما في الأمر هو غبار يطرأ على جوهر الإسلام الخالص ، وبالأصح على صعيد مجتمع إسلامي - لعوامل قاهرة طارئة - وسرعان ما يزول ويتطاير بقوة الإسلام الداخلية ، أو جهود عالم مصلح ويصدق قوله ﷺ ، « لا تجتمع أمتي على ضلالة »[١] وقوله ﷺ : « إن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها »[٢] .

وقد كانت القاديانية على رأس الفتن التي ابتليت بها الأمة ، وقدر لي أن أعيش في خلال دراستي للتاريخ النواحي التي تتعلق بالفكر ، والديانات ، والأخلاق والعقائد والحركات ، فأستطيع أن أقول في ضوء دراستي : إنه لم تكن فتنة في تاريخ الإسلام منذ فجره إلى الآن ، من الخطر والأثر والدقة ، بالمكان الذي احتلته القاديانية .

---

(١) ابن أبي عاصم .

(٢) رواه أبو داود وغيره .

وأخطر نواحيها أنها دعوة إلى ديانة مستقلة ، وإلى أمة إزاء الأمة الإسلامية ، والعلماء الذين قاموا بالرد على القاديانية في البداية ، لم يطلعوا منها على بعض النواحي الخطرة جدًا ، لأن كتابات القادياني والقاديانية لم تكن قد ظهرت آنذاك ظهورًا كاملاً ، والمرء لا يستطيع أن يبدي رأيه في القضية التي لم تنكشف عنها أستار ولم تتجل نواحيها كلها ، فكثير من علمائنا المناظرين والمدافعين عن الإسلام والمكافحين للقاديانية الذين كتبوا في الموضوع ، إنما نظروا إلى القاديانية كفرقة من الفرق الإسلامية ، ومن هذه الوجهة حاسبوها وأخذوا عليها وأبدوا حيالها ملاحظاتهم ، على حين أن الأمر ليس كذلك بالتأكيد ، وإنما الحقيقة أنها دعوة إلى دين مستقل ، وإلى أمة متوازية ، وإلى نظام مستقل محل النظام الإسلامي ، فقد جاءت بشعائر مقابل الشعائر الإسلامية ، والمقدسات إزاء المقدسات الإسلامية ، والمراكز الروحية والدينية ، تجاه المراكز الدينية والروحية الإسلامية ، والقبلة مكان القبلة الإسلامية ، وشخصيات جديرة بالحب والاحترام ، مكان الشخصيات الإسلامية ، وكتبًا مقدسة مكان الكتب الإسلامية ، فجاءت ببديل عن كل شيء في الإسلام . ولا مكان هنا للإفاضة ،

والوقت لا يسمح بالتفصيل ، وقد جاء الحديث عن ذلك كله في الكتب التي ألفت في مكافحة القاديانية ، وتحدثت عن ذلك في تفصيل في كتابي : « القادياني والقاديانية » وأقمت لذلك عنوانًا مستقلًا [١] .

فلا يغيبن عن بالنا أنها محاولة لتشكيل ديانة مقابل الدين الإسلامي ، وأبناؤها أمة مقابل الأمة الإسلامية ، بل إنها فضلت نبيها على جميع الأنبياء .

وقد أدرك هذه الحقيقة الدكتور محمد إقبال إدراكًا كاملًا [٢] ، فإنه أكد في إحدى مقالاته الإنجليزية التي أجاب فيها على التساؤل الذي أثاره البندت جواهرلال نهرو رئيس

---

(١) راجع الباب الرابع من كتابنا : « القادياني والقاديانية » الفصل الأول : « دين إزاء دين وأمة إزاء أمة » .

(٢) وقد كان للدكتور محمد إقبال ، والشاعر الزعيم ظفر علي خان ، فضل كبير في حماية الجيل المثقف الجديد ، أولهما بشعره البليغ العميق ، والآخر بشعره المتهكم اللاذع ، عن الانسياق إلى الحركة القاديانية والخضوع لها ، فكريًا وعقائديًا ، وهما يستحقان من الغيارى على هذا الدين ، الدعاء والشكر والاعتراف .
أما كبار العلماء المخلصين الذين ركزوا على الرد على القاديانية وكرسوا جهودهم على مقاومتها وتفنيدها ، فقائمتهم طويلة مشرقة لا يتسع لها هذا البحث الموجز ، وليرجع إلى كتاب المحاضر « القادياني القاديانية » ص ٧ .

وزراء الهند الأسبق ، عندما قامت حركة ختم النبوة في الباكستان ، وتساءل : لماذا هذا الحماس ضد القاديانية على حين أنها في اعتقادي محاولة لمثل الإصلاحات التي قام بها كمال أتاتورك ؟ فرد عليه محمد إقبال بقوله :

« إن اجتماعية الأمة الإسلامية ووحدتها مرتبطتان بعقيدة ختم النبوة »[١] .

وقد قال في مقاله الإنجليزي المشار إليه أعلاه : إن الإسلام دين منزل من الله ، وهو قائم على شريعته وعقائده ، ولكن الإسلام كمجتمع وملة ، قائم على عقيدة ختم النبوة ، إن الإسلام سيظل قائمًا مادامت شريعته إلا أن الأمة اجتماعيتها وترابطها وبقاءها واتصالها برسولها ومعلمها ، إنما ترتبط كليًا بعقيدة ختم النبوة[٢] .

والأمر الآخر الذي اكتشفه محمد إقبال ، هو أن هذه الفتنة كانت غرسَ الحكومة البريطانية ، والسلطة الغربية وهي من

---

(١) راجع رسالة الدكتور محمد إقبال : (Islam and Ahmadism) طبع المجمع الإسلامي العلمي ، لكهنؤ ، الهند .

(٢) المصدر السابق ، و « حرف إقبال » ص ١٣٦ .

مخططاتها العميقة الأثر ، البعيدة المدى ، يقول المرزا غلام أحمد بنفسه :

« لقد نشرت خمسين ألف كتاب ورسالة وإعلانًا في هذه البلاد وفي البلاد الإسلامية تفيد أن الحكومة الإنجليزية صاحبة الفضل والمنة على المسلمين ، فيجب على كل مسلم أن يطيع هذه الحكومة إطاعة صادقة ، وقد ألفت هذه الكتب في اللغات الأردية والعربية والفارسية وأذعتها من أقطار العالم الإسلامي حتى وصلت وذاعت في البلدين المقدسين مكة والمدينة وفي الآستانة وبلاد الشام ومصر وأفغانستان ، وكان نتيجة ذلك أن أقلع ألوف من الناس عن فكرة الجهاد التي كانت من وحي العلماء الجامدين ، وهذه مأثرة أتباهى بها يعجز المسلمون في الهند أن ينافسوني فيها »[١] .

وقد سمى غلام أحمد أسرته ونفسه بقلمه « غرس الإنجليز » يقول :

« والمأمول من الحكومة أن تعامل هذه الأسرة التي هي من غرس الإنجليز أنفسهم ومن صنائعهم ، بكل حزم واحتياط

(١) ستاره قيصره ، تأليف المرزا غلام أحمد .

وتحقيق ورعاية ، وتوصي رجال حكومتها أن تعاملني وجماعتي بعطف خاص ورعاية فائقة »[١] .

وأبدى محمد إقبال رأيه فيما يتعلق بالإمامة والنبوة ، (وقد ادعاهما غلام أحمد) يقول وهو يتحدث عن الإمامة في أبياته الأردية البليغة :

« إنك سألتني عن حقيقة الإمامة ، إن الإمام الحق في عصرك ـ جعلك الله مدركًا للأسرار مثلي ـ من يرغبك عن الحاضر الموجود ، ويريك وجه الحبيب في مرآة الموت ، فيجعل حياتك أشق عليك من ذي قبل ، ويهبك شعورًا بالخسارة ، فيجعل حماسك ثائرًا ودمك فائرًا ، ويشحذ فقرك فيحوله سيفًا صارمًا ، والإمامة فتنة للملة البيضاء إذا كان صاحبها يدعو المسلم للعبودية للسلاطين » .

وقال وهو يتحدث عن النبوة :

« إني لست عارفًا ولا مجددًا ، ولا محدثًا ولا فقيهًا ، فلا أعلم ما هي مكانة النبوة ، إلا أني مطلع على العالم الإسلامي ،

---

(١) تبليغ رسالة ، المجلد السابع ص ١٩ ـ ٢٥ .

وأعلم ما يضمره الفلك الأزرق ، فرأيت في ليل العصر الحاضر الأحلك ، الحقيقة المستنيرة استنارة البدر ، أن النبوة سم ناقع للمسلمين ، إذا لم تكن تحمل لهم رسالة القوة والشوكة » .

أيها السادة العلماء ، والطلاب والشباب الأعزاء والضيوف الأجلاء ! أريد أن أؤكد أن مسئولية الحفاظ على الدين تعود كالسابق على العلماء وعلى خريجي المدارس والمعاهد الإسلامية ، وعلى طلاب العلوم الدينية ، وقد جاء هذا المؤتمر في أوانه ومكانه ، وقد أسلفت أن القيام بواجب الحفاظ على الدين يحتاج إلى الفهم العميق للدين ، والتعمق في الأسرار والحقائق الدينية ، وتلقي التربية على الأساتذة الراسخين في العلم ، ورجال الفن الأخصائيين ، ودراسة الدين واللغة العربية والتضلع منها مباشرة والدراسة الموسعة ، وفوق ذلك إلى الضمير الحي النابض ، والحمية الدينية الدفاقة والغيرة الدينية الفوارة ، وقد كان ذلك كله من ميزات سلفكم الصالح من علماء الهند بين علماء عصرهم ، وأستطيع أن أقول في ضوء اطلاعي على العالم الإسلامي : إن هذه المزايا يستأثر بها العلماء الهنود على الأقل منذ القرن الحادي عشر الهجري إلى الآن ، وكان في طليعتهم الإمام أحمد بن عبد الأحد السرهندي

الذي يندر نظيره في العالم الإسلامي بعد شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية ، ثم حكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي صاحب « حجة الله البالغة » ، وتلقى لواء الحفاظ على الدين العلماء المجاهدون الذين خلفوه ، حتى جاء عهد الإمام محمد قاسم النانوتوي ـ مؤسس الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند ـ والشيخ السيد محمد علي المونكيري ـ مؤسس ندوة العلماء ـ وخلفهما تلاميذهما وأتباعهما ، والمدارس الإسلامية التي أسسوها ، ثم العلماء المتخرجون فيها ، والمنسوبون إليها .

ومن واجب هذه المدارس الإسلامية الأوجب الآن ، أن تحتفظ بالدين بكل أجزائه ، حتى لا يقع هناك خلل في فهمه وفي تعبيره وفي تصوره ، وحتى لا تهتز جذوره ، إن ذلك هو واجبنا نحن خريجي المدارس العربية الإسلامية وحدها ، فقد يمكن أن يشاطرنا غيرنا في المجالات الأخرى ، ولكن مجال صيانة الدين والحفاظ عليه لا يشاركنا فيه أحد ، وإنما المسئولية في ذلك علينا وحدنا .

وأريد أن أركز على نقطة أخرى هامة ، وهي أنك إذا درست القاديانية علمت الأسباب التي مكنتها من الانتشار ـ

وقد تحدثت عنها في كتابي : « القاديانية » ـ كان من بينها القلق النفسي ، والاضطراب الفكري ، وادعاء الروحانية الباطلة ، والهيام بأخبار الإلهام والمبشرات[١] ، وإنكم ملزمون في المستقبل أن تعيدوا إلى الجيل الجديد الثقة بالإسلام ، وبقدرته على الإنتاج وصنع الرجال وتخريج الأبطال ، ودوام هداية القرآن الكريم ، وقدرة هذه الأمة على أن تعسل خليتها في كل زمان ومكان ، وأن الشريعة الإسلامية تصلح لكل عصر ومصر ، ولا أقول إنها تساير الزمان (لأن هذا التعبير بالنسبة للإسلام غير لائق) بل تقوده وتوجهه حيثما شاءت ، فيجب أن تعرضوا الدين عرضًا يفهمه الجيل الجديد ، حتى تعود ثقته بالإسلام ، وبقدرته على قيادته المدنية والحضارية .

وقد ثارت قضايا كثيرة في سبيل الحفاظ على شخصية الأمة الإسلامية الهندية اليوم ، مثل قضية « توحيد قانون الأحوال الشخصية لجميع الطوائف » وقضية التعليم الديني للنشء الإسلامي ، وقد أصبحت القضيتان قضيتين حاسمتين مصيريتين في حياة الشعب الإسلامى الهندي ، مقررتين مصيره كشعب مسلم محتفظ بشخصيته الإسلامية المميزة ، وحامل

(١) راجع الفصل الأول ، القرن التاسع عشر المسيحي .

للرسالة والدعوة المنبثقتين من تعاليم الإسلام وأهدافه ومُثُلِه .

وقد نشط في نشر الإسلام والدعوة إليه في شبه القارة الهندية من العصر الأول دعاة مخلصون من الطراز الأول من الدعاة والمربين في تاريخ الدعوة الإسلامية ، في طليعتهم وعلى رأسهم الشيخ معين الدين الجشتي الذي أسلم على يده مئات ألوف من البشر[١] ومن جاء بعده كالسيد علي الهجويري ، والشيخ إسماعيل اللاهوري والأمير الكبير السيد علي الهمداني الكشميري ، وفريد الدين الأجودهني[٢] وأسلم على يد السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (ش ١٢٤٦ هـ) وحده أربعون ألفًا من غير المسلمين[٣] .

وقد رويت هذه الأرض بدماء كثير من الشهداء والمجاهدين في سبيل الله ، وأنهض الله من أرضها كبار المجددين والأئمة الأعلام ، والذين نفخوا حياة جديدة في العالم الإسلامي كله.

---

(١) راجع « آثين أكبري » للمؤرخ العلماني الكبير أبو الفضل بن مبارك ، وكتبًا أخرى.

(٢) اقرأ للتفصيل كتاب « Preaching of Islam » لصاحبه T. W. Arnold وتعريبه « الدعوة إلى الإسلام » .

(٣) اقرأ « الإمام الذي لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف » .

ولكن هناك بلادًا في أرض الله كتركستان ، البلاد التي أنجبت الإمام البخاري ، ولا يزال يرن في أذني صوت شيخ الإسلام الشيخ حسين أحمد المدني ـ وهو يقرأ الجامع الصحيح للبخاري ـ الصوت الحلو المعسول ، الباعث للإيمان واليقين ، الذي كان يدوي في قاعة دار الحديث هذه في هذه الجامعة ـ دار العلوم ديوبند ـ وهو يقول بعد تلاوة الخطبة المسنونة قبل أن يبدأ تدريس صحيح البخاري كل يوم :

« وبالسند الصحيح المتصل عن أمير المؤمنين في حديث رسول الله ﷺ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبة الجعفي البخاري ، قال حدثنا » .

قلت : إن هناك بلادًا دون درجة أسبانيا في نكران الإسلام ، وبالقياس إلى غربته فيها ، ومن بينها الصين ، وبلغاريا وألبانيا ، وتليها بعض البلاد التي يحرج المرء أن ينادي فيها باسم الله ، أو يعلن انتماءه الكثير إلى الإسلام ، رغم أن المسلمين يشكلون فيها أغلبية ، وفي يوليو الماضية ١٩٨٦ م ، كنت قد سافرت إلى تركيا مع ابن أختي العزيز الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي ، حضورًا في مؤتمر « رابطة الأدب الإسلامي » ولما حضرنا قاعة الحفل ، برز أديب تركي

ليخطب ، وبدأ خطبته ببسم الله الرحمن الرحيم ، وقال :

« إني لما استهللت خطبتي منذ أعوام ببسم الله الرحمن الرحيم في بلدي هذا ، تعرضت للحرج والصعوبة الشديدة ، وواجهت مصاعب ، غير أنني عدت اليوم أستهل كلمتي « بسم الله الرحمن الرحيم » دونما خوف أو وجل » .

على كل فإن قليلاً من الغفلة والتقصير قد يغير اتجاه البلاد ، ويصبغها بصبغة أخرى ، فأرجوكم أن تهتموا بتعليم الجيل الجديد وتربيته تربية إسلامية ، وأود أن تقيموا شبكة المدارس والكتاتيب في كل قرية ومدينة ، ويجب أن تكون هناك كتاتيب صغيرة بجنب المدارس الكبيرة والجامعات ، تعلم النشء القرآن وتعرفه بالإسلام ، وتنفخ في قلبه منذ البدء الروح الدينية .

وختامًا أحمد الله على هذه الفرصة الطيبة للحديث في هذا الموضوع الهام ، وأشكر الذين أتاحوا لي هذه الفرصة ، وأدعو لكم بالتوفيق والاستقامة ، وعلو الهمة .

والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

* * *

الفهرس

الموضوع الصفحة

المحاضرة الأولى :

ترشيد الصحوة الإسلامية .....

المحاضرة الثانية :

منهج أفضل في الإصلاح للدعاة والعلماء ٣٩

المحاضرة الثالثة :

الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر ، جبهاتها الحاسمة .. ومجالاتها الرئيسية ٧٣

المحاضرة الرابعة :

النبي الخاتم والدين الخاتم ، وما لهما من أهمية في ..... تاريخ الأديان والملل ٩٥

الفهرس ١٣٥

* * *

مطبعة المدينة

١١ ش أحمد العسقلانى – دار السلام – القاهرة

ت : ٣١٨٤٧٢٤